خديجة
أم المؤمنين

تأليف

السيد عبد الحميد الزهراوي

تقديم

طاهر الطناحي

الكتاب والمؤلف

بقلم الأستاذ طاهر الطناحي

لعل هذا الكتاب هو أول كتاب يحوى أوسع بحث عن السيدة خديجة أم المؤمنين زوجة النبى محمد عليه السلام، التى تزوجها فى عنفوان شبابه ، وقبل بعثه رسولا من الله الى الناس بخمسة عشر عاما . وعاشت معه خمسة وعشرين عاما زوجة واحدة لم يتزوج عليها سيدة أخرى ، حتى بلغ الخمسين من عمره ، فى حين كان تعدد الزوجات قبل الاسلام عادة شائعة بين العرب . وقد وفى لها بعد وفاتها ، فمكث مدة وحيدا ، حتى أشفقت عليه من وحدته سيدة مسلمة فخطبت له باذنه عائشة بنت أبى بكر . ثم تزوج معها من تزوج من أمهات المؤمنين ، لا لمجرد الزواج ، بل لعدة أسباب بعثته عليه السلام الى تعدد الزوجات : منها صلة الرحم والضن بها عن المهانة ، ومنها المحافظة على هؤلاء الزوجات من الفتنة ومتاعب العيش ، فقد كانت معظمهن ارامل ممن مات أزواجهن فى الحرب أو الهجرة الى الحبشة ، أو خيف عليهن الارتداد عن الاسلام والعودة الى حياة المشركين

وقد كانت السيدة خديجة هى الزوجة الوحيدة التى ولدت له عددا من البنين والبنات ولم تلد له زوجة من أزواجه ولدا ماعدا مارية القبطية التى أهداها اليه المقوقس حاكم مصر . فقد ولدت له ابنه ابراهيم . وكانت خديجة

بنت خويلد أول من آمن برسالته حين رجع اليها من غار حراء ينبئها بقصة الملك جبريل ، الذى بشره بالرسالة ، ونزل اليه بأول سورة فى القرآن هى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم »

واذا درسنا الحياة الزوجية للنبى محمد (ص) وجدنا انها بمعناها الكامل من الهناء العائلى والغبطة بالامومة والابوة ، تتمثل فى زواج محمد بخديجة ، فى تلك السنوات الطويلة ، التى لم يعكر صفوها خلاف بين الزوجين ، ولا غيرة بين عدة زوجات يدفعن زوجهن الى المخاصمة والقطيعة وتهديد الله لهن بأن يزوجه خيرا منهن مؤمنات قانتات

***

وفى هذه الحياة الزوجية السعيدة التى عاشها النبى (ص) مع خديجة بنت خويلد يصح أن نقول انه لم يتزوج النبى محمد عليه السلام الا زوجة واحدة طول حياته كانسان، لا كنبى صاحب رسالة ، وأن حياة هذه الزوجة جديرة بأن تدرس وتبحث ، وأن يوضع فيها هذا الكتاب الذى الفه علم من أعلام الاسلام ، وعربى من خيرة العرب دينا وعزيمة ووطنية وهو الزعيم السورى الشهيد السيد عبد الحميد الزهراوى

فلقد جمع هذا الكتاب النفيس عددا من الفصول القيمة عن بيئة خديجة العربية وتاريخ هذه البيئة واوضاعها الدينية التى سبقت الاسلام ، وقد تحدث المؤلف عن قومها قريش ، وبيوتاتهم القرشية ، وعاداتهم العربية الاصيلة ثم تناول فضائل خديجة وما كانت عليه من أخلاق وصفات وجمال ، وما كان لها من ثروة كبيرة وعناية بالتجارة بين مكة والشام ، وبين مكة وجنوب الجزيرة العربية . وكيف عاونته بعدما أرسله

الله رســـولا الى الناس عشر ســـنوات دافعت فيهـا دفاعا مجيدا عن صادق نبوته ، هي وعمه أبو طالب الذى توفى معها فى سنة واحدة ، وكانت وفاتها ووفاة أبى طالب خسارة له فى ذلك الحين أطمعت فيه المشركين فى مكة حتى اضطر الى الهجرة أولا الى الطائف ، واضطر فيما بعد الى الهجرة الى المدينة

***

واذا كانت الى جانب كل عظيم سيدة يعتمد عليها فى جهاده ، وفى الوصول الى أهدافه ، فقد كانت خديجة تلك السيدة العظيمة التى ناصرت نبوة محمد ، وعاونت على رفع راية الاسلام ، وجاهدت فى سبيل الدعوة الاسلامية عشر سنوات لم تخذل فيها زوجها يوما من الايام ، ولم تقف مع عدوه ضده ، ولم تتردد فى صدق رسالته أو تكن فى الصفوف الاخيرة ، ولم تتعصب لما كانت عليه هى وقومها من عبادة الاوثان ، بل كانت الاولى فى كل شىء : فى سماحة الخلق وجمال الطلعة ، ووفاء الزوجة وشرف النسب وكرم المحتد ، والايمان بما جاء به محمد عليه السلام ، بعقيدة ثابتة ، ونفس مخلصة وقلب سليم

وقد جاهدت خديجة بنت خويلد فى سبيل الدعـــوة الاسلامية التى جعلت من العرب أمة عظيمة ودولة جليلة الشأن امام دولتين عظيمتين فى ذلك الزمان ، هما : دولتا الفرس والرومان . واذا كانت لم تشترك بالسـيف فى المعارك التى قادها أبطال العرب وأدت الى سقوط هاتين الدولتين ، كخالد بن الوليد ، وسـعد بن أبى وقاص ، وعمرو بن العاص ، فان نصرها لهذه الدعوة المحمدية فى أول ظهورها واشراق نورها يعتبر أول نصر على هاتين الدولتين ، وأول معول لهدم ما كانت عليهما من عظمـة وسعة ومجد . فهى لهذا أول سيدة فى الاسلام جاهدت

فى سبيل الاسلام وفى سبيل رفعته ونجاح هـذا النبى العربى الكريم ، وفوز العرب والقومية العربيـة بهـذه الفتوحات الواسعة والسيادة الكبرى

ومن حسن الاتفاق فى هذا الكتاب أن مؤلفـه علم من أعلام الاسلام ، ومجاهد عربى كبير ، قضى حياته فى نشر تعاليم الاسلام ورفع شأنه ، وعاش ما عاش مواطنا عربيا يدافع عن العروبة وعن القومية العربية ضد الاستبداد والمستبدين ، وضد الاستعمار والمستعمرين ، حتى سقط شهيدا فى ميدان الجهاد

***

وقد كان رحمه الله سورى المولد ، فقد ولد فى مدينـة حمص ، ونشأ فيها من عائلة شريفـة النسب ،كريمـة المحتد ، وتلقى علوم اللغة والدين عن كبـار شيـوخها وأدبائها . وكان الاستبداد العثمانى ــ فى شبابه ــ شديد الوطأة على بلاده، فهاجر الى القاهرة ينشد الحرية والامان، فانضم الى تحرير صحيفة « الجريدة » التى كان يرأسها أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ، ثم اشترك فى تحرير جريدة المؤيد . وفى ذلك الحين أصـدر هـذا الـكتاب « خديجة أم المؤمنين »

وقد عاش فى القاهرة نحو ثمانية أعوام ، فقد نزلها فى نحو ١٩٠٠ الميلادية . ولما أعلنت الدولة العثمانية الدستور سنة ١٩٠٨ وانهار نظامها القديم عاد الى بلده حمص ، ورشح نفسه لعضوية المجلس النيابى العثمانى (المبعوثان) فاختير باجماع الحمصيين لتمثيلهم فى هذا المجلس . فكان أول نائب لحمص فى عهد الحكم الجديد

وقد اشتهر السيد عبد الحميد الزهراوى بدفاعه المجيد عن حقوق العرب فى مجلس المبعوثان وفى الصحف العربية والتركية ، وفى المؤتمرات التى عقدها العرب للخلاص من

الاستبداد وتحقيق الاصلاح المنشود للبلاد السورية . وقد تزعم المؤتمر الذى عقدته الجالية العربية فى باريس فى شهر مارس سنة ١٩١٣ مع زعماء الاحزاب والهيئات السورية التى رأت عقد هذا المؤتمر لبحث التدابير التى يجب اتخاذها لوقاية الوطن من الطوارىء واصلاح البلاد العربية على قاعدة اللامركزية !

وقد ناب الزهراوى فى هذا المؤتمر عن حزب اللامركزية العثمانى الذى ألفه سنة ١٩١٢ مع بعض كرام السوريين، وكان الاستاذ اسكندر عمون وكيل هذا الحزب . وتألفت لجنة المؤتمر الادارية من محمد المحمصانى ، وشكرى غانم وعونى عبد الهادى ، وجميل مردم ، وعبد الغنى العريس ، وندرة المطران ، وجميل معلوف ، وشارل دباس . وافتتح المؤتمر جلسته الاولى يوم الاربعاء ١٨ يونيو سنة ١٩١٣ بقاعة الجمعية الجغرافية بشارع سان جرمان بباريس ، فكان أول مؤتمر يعقده العرب لمطالبة الدولة العثمانية بحقوق العرب

وقد اختار المؤتمر بالاجماع السيد عبدالحميدالزهراوى رئيسا ، وأصدر فى آخر جلساته القرارات الاتية :

١ ـ ان الاصلاحات الحقيقية واجبة ، وضرورية للمملكة العثمانية ، ويجب أن تنفذ بوجه السرعة

٢ ـ من المسلم به ان يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية . وذلك بأن يشتركوا فى الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا

٣ ـ يجب أن تنشأ فى كل ولاية عربية ادارة لامركزية ، تنظر فى حاجاتها وعاداتها

٤ ـ اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة فى مجلس النواب العثمانى ، ويجب ان يقرر هذا المجلس ان اللغة العربية لغة رسمية فى الولايات العربية

٥ ـ تكون الخدمة العسكرية محلية فى الولايات العربية الا فى الظروف والاحيان التى تدعو الى الاستثناء الاقصى

٦ ـ يصادق المؤتمر، ويظهر ميله لمطالب الارمن العثمانيين القائمة على اساس اللامركزية ، ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم ، ويحيى العراق

وقد بذلت الحكومة العثمانية لدى حكومة باريس جهودا لتحول دون عقد هذا المؤتمر ولكنها لم تنجح ، ولجأت الى طرق اخرى لمنع عقده ، فأخفقت وجنحت الى التفاهم ، فأرسلت وفدا من رجالها اتصل بزعماء المؤتمر ، وانتهى البحث بوعد من الحكومة العثمانية بتنفيذ الاصلاحات المطلوبة ، واصدرت لذلك عدة قوانين وتشريعات ، ولكنها ظلت حبرا على ورق ، وظل الزهراوى ورفاقه يجاهدون فى سبيل الاصلاح السياسى ، ويطالبون بحقوق العرب . وقد أصدر فى الاستانة جريدة الحضارة لتكون لسان الحركة القومية الجديدة ، وبقيت هذه الجريدة تقوم بواجبها وتؤدى رسالتها الوطنية العربية حتى قامت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ فأغلقت ، وعاد الزهراوى الى بلده « حمص » يواصل جهاده حتى اعتقلته السلطة العسكرية التركية بقيادة جمال باشا السفاح فى اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٩١٦ وأعدمته بلا محاكمة فى فجر اليوم التالى فى ساحة الشهداء بدمشق ، مع بعض زعماء العرب السوريين واللبنانيين الذين اعتقلهم هذا السفاح . وكان اول زعيم عربى لقى حتفه فى ذلك الحين دفاعا عن العروبة والعرب ثم تلاه فى ذلك اليوم ، وفيما وليه من ايام سائر الشهداء الذين بلغ عددهم ستين شهيدا أعدمتهم حكومة الاتحاديين أثناء الحرب العالمية الاولى

رحمه الله ورحم زملاءه الاحرار

طاهر الطناحى

اهداء

دخل هذه الدار ـ دار الفناء ـ عدد لايحصى من بنى آدم بمجموعهم عمرت القرى والامصار ، وتقدمت العلوم وازدهرت الاعمال. واذا فتحت كتب السير والتاريخ ، لا تجد ذكرا لعشر من دخلها ، ولا لعشر عشرهم ، ولا لواحد فى ألف الالف منهم ، فلماذا يعنى المؤرخون بهذا القليل من بنى آدم ويهملون الكثيرين منهم ؟..

ليس بعجيب ما صنع المؤرخون ، فان الكثيرين من بنى آدم متشاكلو السيرة ، متشابهو الحالة والغاية ، على ما بين سيرهم من التغاير ، وبين أحوالهم من التفاوت ، وذلك ان حاصل أمرهم تعب وكد ومزاحمة وحيرات وحسرات فى تحصيل ما اشتهوا أو تعودوه من المطالب جل أو حقر ، فماذا عسى أن يذكر المؤرخ من حكايات هؤلاء التى يمكن أن تكتب كلها هكذا « جاءوا الى هذه الدنيا فاشتغلوا بأسباب معايشهم ، وعاشوا خاضعين للغالب ، وذهبوا غير تاركين أثرا فى هذه الدار الا ان كان ولدا على شاكلتهم »

وأما أولئك الافراد القليلون الذين لهم بعد مماتهم وجود ظاهر بالآثار، فان فى سيرهم للتاريخ ذخرا من غرائب الاستعداد الانسانى ، وبدائع مظاهره ، وجلائل مآثره ، وأمثلة التفاوت بين أفراده ، والارتقاء والتكامل فى مجموعه ، بواسطة آحاد من جملته ، وبذلك يستمد

التاريخ جدته كل يوم ، ويأخذ المزيد لرونقه عند كل فرد وكل قوم

وأولئك الافراد صنوف : فرسول مبشر ، وحكيم مبصر ، وكاتب مفكر ، وشاعر مذكر ، وفاتح مغير ، ومخترع محير ، وكاشف منور ، وباحث مصور ، واجتماعى محور ، وشرعى مقرر ، ونصاح مبرر ، ولسانى مفسر ، ومفضال ميسر

***

هؤلاء الصنوف أقطاب ، التاريخ على أخبارهم يدور ، ومآثرهم يستمد منها النور... ووراءهم فى الذكر يأتى من اشتهروا بخلق من الاخلاق ، ومن عرفوا فى عشيرة بطيب الاعراق ، ومن هنا يظهر لنا أن الشهرة ليست بشىء عند التاريخ اذا لم تؤيد بمآثر ، ولولا هذا لتعب المؤرخون فى سرد أسماء كثيرة لايستطيعون أن يبيضوا وجوه دفاترهم بشىء من أعمال أصحابها ممن كانوا كبارا فى العيون لأنهم أبناء أماجد مثلا ، وهم لم تمجد لهم همة ، ولم تؤثر عنهم منقبة ، ويظهر لنا أيضا أن اعراض التاريخ عن ذكر من لم تبهر الناس مآثرهم ، هو أحسن درس فى الاخلاق القاه علينا المؤرخون عن عمد أو مصادفة ، وذلك لأن النفوس انما يغريها بالباقيات الصالحات تذكار أهلها ومديحهم ، وانما ينفرها من الخمول سرعة انطفاء الخاملين ، وطول اشراق الباقى ذكرهم فى العالمين

نعم .. ان من لهم الباقيات الصالحات التى يخلدون بها ويذكرون هم أقوى الموجهين للنفوس وانهض بها الى المكرمات ، فحكاية أحوالهم هى أفضل سند للاخلاقيين الذين يجتهدون فى أن يفهموا قارئيهم كيف يكمل الانسان وكيف يصير من الاقطاب ، أقطاب التاريخ

اللهم انى استسقى جودك واحسانك لأرواح المؤرخين

الذين تركوا كنوزا كثيرة لنفوسنا من سير الاقطاب من آبائنا ، وأستغفرك عن زلة وقع فيها أكثرهم من حيث لايشعرون وهي اهمالهم كثيرا من سير الاقطاب من أمهاتنا

لقد علمنا ان الفرق ليس بكبير فى الفطرة بين الرجل والمرأة ، وليست المرأة بمحرومة من المزايا التى يعلو قدر المتحلي بمثلها من الرجال ، ذلك أننا نرى لهن عقولا سليمة ، وقلوبا كريمة ، وهمما عظيمة . وهل للرجال ينابيع للمكارم غير هذه العقول والقلوب والهمم ؟ ونرى الأديان اعتبرت المرأة كالرجل فى التكليف بالعقيدة والعبادة والآداب . ونرى الاجتماع اعتبر المرأة كالرجل فى التكليف بالعمل ، وما زال نصيبها منه كبيرا . وهذا غير ما نعلمه من فضل بعض الفاضلات السابقات اللاتى تصلح سيرهن أن تكون هدى للرجال والنساء ، ولولا تلك الزلة التى ذكرناها للمؤرخين لكان اللاتى نعرف سيرهن أكثر .. وما اللاتى نعرف سيرهن الآن من الفاضلات بقلائل ..

من هؤلاء سيدة قد سمع بفضلها العالم كله ، ولكن العارفين بتفاصيل فضائلها ومزاياها قليلون . الشرق سمع بهذه السيدة ، والغرب ، الترك يعظمون اسمها والعرب ، وفارس ، والهند ، والافغان ، والسند ، وفى أرض الصين تعظم ، وفى الدنيا الجديدة تكرم .. واذا تصفحت وثائق المؤرخين — عفا الله عنهم — لا تجد فيها تحت إسم هذه السيدة الجليلة الا كلمات يسيرة فى ترجمة حالها ، وشرح خلالها ، ولكنا نحن شاكروهم على هذه الكلمات التى يملأ سناها العقول والقلوب اذا اهتدينا بها — على قلتها — الى عظيم أمرها ، كما يدرك المسافرون — عن طريق البحر — عظمة المنار اذا كانت أشعته قوية تمتد الى مدى بعيد ..

ولقد فكرت أن أكافىء والدتي بعض المكافأة فتبينت بعد طول التفكير أن عظيم فضلها على أعظم من أن يفى به شيء فى هذا الوجود .. ولكن تراءى لى انه يسرها أن أعلن للملأ فضل جنسها وأذكرهم بما نسوه من احترام حقوق هذا الجنس ،ولم أجد طريقة تحقق هذه الغاية الجليلة أفضل من شرح سيرة هذه السيدة التى هى احدى جداتها

فمن تلك الكلمات القليلة التى تركها لنا المؤرخون فى ترجمة حال هذه السيدة أؤلف هذه القصة الحقيقية والى روح والدتى أرفعها ـ بخشوع ـ هدية متواضعة ومن خزائن رحمة الله ورضوانه استنزل تحية طيبة مباركة لهذه الروح البارة

ومن راقه هذا المؤلف الصغير ووجد فيه متعة وفائدة فلى حق أن ارجوه شيئا ، ولا أرجوه الا أن يكون داعيا لحقوق المرأة ، وكرامتها ، وآدابها .. ان النساء أمهاتنا معشر الرجال ، وعلى حسب تربيتهن نكون ، فلنطلب من المجتمع الذى نعيش فيه أن يهذب بالعلم الامهات ويسعى لترقية مداركهن وآدابهن

عبد الحميد الزهراوى

مقدمة الكتاب

قبل ثلاثة عشر قرنا ـ على الحساب القمرى ـ حدث فى الكون حادث عظيم جدا ، لم يحدث مثله الى الآن .. كان له دوى قوى وأثر كبير فى آسيا ، واوربا ، وافريقيا ، واعقبه انقلاب عظيم فى ممالك الارض وتغير جسيم فى احوال الامم والشعوب ، ذلك الحادث هو قيام العرب بعقيدة جديدة وانضمامهم جميعا الى كلمة النبى الذى قام فيهم منهم ، وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، وشروعهم جميعا فى غزو الممالك المجاورة ، وفوزهم فى هذا الغزو ، وانتصارهم وغلبتهم على الامم ، وانضمام امم كثيرة الى عقيدتهم ، وتكون ملكهم العظيم من حدود الهند شرقا الى المحيط الاطلسى غربا ، ومن سواحل البحر الاحمر شمالا الى سواحل بحر قزوين جنوبا ، بأسرع ما عرف فى التاريخ كله من الفتوحات الكبيرة السريعة

هذا الحادث العظيم لا يسترعى اهتمام بعض الناس .. وكأنه شيء مألوف ، فلا يبحث هؤلاء عن سر حدوثه ولا يريدون أن يستفيدوا من التدبر والتفكير فى سر ذلك النجاح العظيم الذى أوتيه أولئك القوم بسرعة جديرة أن نشبهها بلمح البصر . وبعضهم يتلقاه كما هو اى يفهم أنه حادث من أعظم الاحداث التى حدثت فى الدنيا ، ويراه جديرا بالبحث والتأمل وامعان النظر . ولدى التأمل نجد هناك عاملين تم بفضلهما هذا الحادث العظيم ، الاول :

النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، والثانى : الذين آمنوا به ونصروه من العرب . وبديهى أن أول مؤمن به هو صاحب الفضل الاول بعد النبى فى اقامة هذا الصرح العظيم

ومن الامور التى يحق أن يفخر بها جنس النساء أن هذا الفضل الاول ، أى السبق بالايمان به وتأييده ، كان نصيب سيدة من أشراف قومه هى زوجه السيدة خديجة بنت خويلد من قريش . ولما كانت سيرة هذه السيدة الشريفة التى ساهمت فى وضع الدعامة الاولى من هذا الحادث العظيم لاتخلو بالبداهة من فوائد جسيمة ، أزمعت أن أقدم فى هذا الكتاب لمحبى الفوائد الادبية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والتاريخية ، أعظم هدية ، مقتطفا هذه الثمرات من دوحة حياة هذه السيدة الجليلة ، ولكنى رأيت من اللازم جدا قبل دخولى بالقارىء فى تفاصيل سيرتها أن أمر به على تاريخ قومها : العرب عامة ، ثم قريش خاصة ، فان تعريفه بهم يساعده على معرفة هذه السيدة الجليلة

من هم العرب ؟

العرب كسائر الامم أوائلهم مجهولة ، وأحوالهم منذ عرفوا ، غير معروفة .. نقف الآن عند هاتين الكلمتين ونتأمل قليلا فى مبحث لطيف ، نختصر فيه الكلام ، ثم نعود الى سياق حديثنا ..

يزعم كثير من الاقوام أن أصول أمتهم ترجع الى أبى البشر الاول ، ومن الاقوام من يزعمون انهم يعرفون سلاسل أصول الامم كلها حتى يصلوا بها الى ذلك الاصل الاول

ومن التزم التحقيق لايستطيع أن يجزم بشىء مما يذكر عن تلك الاصول والاوائل . ومن تسامح بتصديق مايروى

يتشابه عليه الامر فيحار فى تصديق المتناقضات ، والترجيح بين المختلفات ، ومهما جنح الحريص على المعـــرفة الى الاستئناس بما يمكن قبوله من الحكايات فى هـذا الباب لايستغنى عن طرح كثير منها مما تقوم الادلة على بطلانه

لماذا حرصت كل الشعوب على معرفة اسلافهم الى أول أصل ؟ .. لا ندرى ، ولـكن يلوح لنا انه لذت للاكثرين دعوى هذه المعرفة ، فابتدع كل قوم أسطورة فى بيان أصلهم ينقلها الآباء للابناء ويسطرونها فى كتبهم تسطيرا

أما الباحثون عن أنساب الشعوب فلما يئسوا من هذه المعرفة قنعوا بأن تكون لهم معرفة ما بأصول الشعوب التى وجدوها متقاربة فى اللغات ، وغيرها من المميزات ، وقد آنسوا من كثرة البحث والاستـئناس بالمنقول أن البشر المعروفين اليوم هم من ثلاث سلالات :

١ ـ السامية
٢ ـ الاريانية
٣ ـ التورانية

وظاهر من هذا ، انهم لما أرادوا وضع أسماء للاصول القليلة التى تفرعت منها هذه الشعوب المعروفة تساهلوا بقبول بعض ما لفق فى حكاية البشر مما قبل التـاريخ ، ولكن هـذا لا يروى فى الحقيقة غليل المحققين ولا غليل الخياليين ، فسيظل المحققون صابرين على جهل مثل هذا ، ويبقى الخياليون متمسكين بما قد حكى لهم من قبل ، وربما تسلى محب الحقيقة عن احتجابها برؤية تماثيلها ، وما تماثيلها الا أساطير الاولين

تماثيلها الا أساطير الأولين

اذا اشتهينا المعرفة فأمامنا مما قد نستطيع معرفته ما تنفد مراحل أعمارنا من غير أن نقطع فى ميدانه شوطا بعيدا ،

وما الوصول الى غاية فى هذا الميدان مما يجوز أن نطمع فيه ..

فاذا أردنا الآن أن نعرف العرب فعلينا قبل كل شيء ان نريح انفسنا من التفكير فى الاحاطة بحقيقة نسبهم حتى آدم ، أو الى نوح بالتفصيل ، كما لم نعد نطمع فى معرفة ذلك فى سائر الامم ، فلهذا لا حاجة بنا الى تكرار ما يذكره علماء الانساب من كون هذا الجيل من الاجيال السامية اذ يقال انى لهم العلم بسام ابى الشعوب السامية وما أغنى من يريد أن يعرف جيلا كالعرب عن الاستعانة بأساطير الاولين

العرب ثلاث طوائف

يقول المؤرخون ان العرب ثلاث طوائف :

١ ـ بائدة

٢ ـ وعاربة

٣ ـ ومستعربة

أما البائدة فهم العرب الاول الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لتقادم عهدهم ، وهم : عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وجرهم الاولى

وأما العرب العاربة ، فهم عرب اليمن من ولد قحطان

والعرب المستعربة ، هم : ولد اسماعيل بن ابراهيم

هذا قولهم وهو لايعجبنى لان البائدة ليست موجودة حتى تعد ، وان كانوا يعدونها لان منها اشتق غيرها فهذه شهادة بأنها لم تبد . وقد ذكروا فى هذا التقسيم عرب اليمن من ولد قحطان قسما مستقلا ، ولم يذكروا لنا ممن هو قحطان هذا . وذكروا أولاد اسماعيل بن ابراهيم قسما مستقلا ولم يأتوا بدليل قويم على انه تفرع من اسماعيل ذرية مستقلة هم العرب المستعربة . وجل

ما ذكروه أن اسماعيل الذى كان غريبا فى جوار مكة المكرمة تزوج بامرأة عربية من تلك القبائل التى كانت حولها ، فهل انقطع نسل تلك القبائل حتى أصبح لايذكر اذا ذكر العرب ثم تبارك نسل اسماعيل الغريب وحده حتى صار قسما مستقلا هو ثالث ثلاثة أو ثانى اثنين اذا ذكر العرب ؟.. لسنا ندرى ، ولكننا نعرف أن هذا من جملة الاقوال التى تكسب بكثرة ترديدها — على مر الزمن — صبغة لاتزول، فيتوهم الكثيرون انها صحيحة ، وهى فى الحقيقة ليست كذلك فليت أولى الالباب يكثرون من التعمق فى دراسة مثل هذه « الحقائق »

وانما يعجبنى جدا فى هذا الباب ما روى من أن النبى العربى عليه السلام كان اذا انتسب يقف عند عدنان ولا يتجاوزه ويقول : « كذب النسابون » (١) ويعنى بذلك الذين يزعمون معرفة الانساب الى آدم أو الى نوح

وأما الذى لا يغير النقد من سطوع جوهره شيئا فهو ان العرب يوم ظهر فيهم النبى الذى أعلى شأنهم كانوا متفرقين فى أقطار جزيرة العرب ومنقسمين قبائل كل قبيلة تذكر لنفسها نسبا تقف فيه عند رجل معروف لديها وتمسك عما وراءه . والمشهور أن لقبائل الحجاز اصلا ، ولقبائل اليمن اصلا آخر ، وللقبائل بعد ذلك أصول متفرعة من أحد الاصلين . وعرب العراق والشام ترجع الى أحد هذين الاصلين أيضا ، فعدنان هو ابو عرب الحجاز غالبا ، وقحطان هو أبو عرب اليمن والعراق والشام غالبا

---

(١) رواه ابن سعد وابن عساكر من ابن عباس وتتمته : قال تعالى « وقرونا بين ذلك كثيرا » ولكن ثبت فى احاديث اصح من هذا أنه (ص) من ذرية اسماعيل وخاطب الله تعالى قومه بقوله « ملة ابيكم ابراهيم » وكتبه محمد رشيد رضا

وان قال قائل : كيف عرف هذا عن العرب وهم أهل بادية متشتتون متفرقون ، متقاتلون ، متذابحون ، لا ملك لهم جامع ، ولا شرع فيهم وازع ، ولا يد لهم فى الاعمال الاجتماعية ، ولا نصيب لهم فى الشؤون السياسية ، وليس لهم قبل الاسلام كتاب معروف تدون فيه أخبارهم، وتذكر فيه مآثرهم وآثارهم ، فمن أجل ذلك لا تجوز الثقة بما ينقل ويحكى عنهم ولسنا نعرفهم الا بالاسلام ، فالاسلام قد جمع الطوائف من أهل هذه اللغة الواحدة على كلمة الغزو ، وهذا لا يثبت ان العرب كانوا يعرفون لقبائلهم أصولا وانهم كانوا يتعارفون بأنسابهم ؟

نقول لصاحب هذا القول ان العرب لم يكونوا مجهولين ولا مجهولة أخبارهم ، فاذا قلنا انهم لم يكونوا أهل كتابة وتاريخ فأشعارهم المحفوظة المنقولة هى ديوان سيرهم ، واذا لم نثق بنقل أشعارهم استطعنا أن نعرف العرب من تاريخ الامم المجاورة لهم . فالفرس قد سبروهم لأن من العرب ملوكا كانوا لهم خاضعين ، وقوادا كانوا بأمرهم عاملين . والروم قد خبروهم لان فى مملكتهم ملوكا وقوادا وولاة من العرب ، والديانة المجوسية تعرفهم لان منهم من كان على دين ملوك فارس ، والكنائس تعرفت بهم لان منهم نصارى بل قسيسين ورهبانا ، وبيع اليهود ما جهلتهم ، والفلسفة ما أنكرتهم ، والحضارة قد ألمت بمساكنهم (فى اليمن ، والعراق ، والشام) ومخالطة الامم أخذوا بقسط منها وأخذت بقسط منهم ، فكيف يكون هذا الجيل مجهولا بعد كل هذا ؟

الوحدة القومية

ان العرب كانوا معروفين .. ومما عرفوا واشتهروا به الحرص على وحدتهم القومية ، فكانوا أمام الغريب أمة

واحدة ، لها وحـــدة باللغة والنسب واتصـــال الديار والعصبية عند التناصر ، فاذا رجعوا الى ما بينهم كانوا قبائل شتى تنتمي كل قبيلة الى أب لها ثم يجمع قبـائل كثيرة منهم أب واحد وهكذا ، ولا يستبعد من أمة محتاجة الى التناصر وليس لها كسائر الامم كتاب يجمع أخبارها وسير ابطالها ، أن يعنى كثير من أفرادها بحفظ ذلك فى اذهانهم .. وقد كان الرجل من العرب اذا عظم أمره ، او كثر ماله ، انفرد بأهله وانتمت اليه الذرية ووضعوا الانفسهم نسبة جديدة من غير أن يضيعوا حظهم من الارتبـــاط بالنسبة الاولى لان لهم عند التناصر حظا منها عظيما

يذكر احد العلماء المتخصصين أن العرب كانت قبائلهم ارحاء وجماجم ، فالارحاء هى القبائل التى أحرزت دورا ومياها لم يكن للعرب مثلها ، ولم تبرح من أوطانها ، ودارت فى دورها كالارحاء على أقطابها ، الا أن ينتجع بعضها فى البرحاء وعام الجدب ، والجماجم هى القبائل التى يتفرع من كل واحدة منها قبائل اكتفت بأسمائها دون الانتساب اليها فصارت كأنها جسد قائم ، وكل عضو منها مكتف باسم معروف بموضعه

علم الانساب

وكان علم الانساب من جملة علوم العرب قد أثره عنهم أهل الرواية أول كل شيء . ونقلوا فيـــه حكايات كثيرة منها ما ذكروه عن يزيد بن شيبان بن علقمــة بن زرارة بن عدس ، وذلك انه رأى فى منى رجلا على راحلة ومعه عشرة شبان بأيديهم المحاجن ينحون الناس عنه ، ويوسعون له ، فدنا منه ، وقال له : « ممن الرجل ؟ » فقال : « انى رجل من مهرة ممن يسكن الشحر » (١) قال يزيد : « فكرهته

(١) بكسر الشين وسكون الراء المهملة ، صقع على ساحل بحـــر الهند من ناحية اليمن

ووليت عنه » فناداني من ورائي : « مالك ؟ » قلت : « لست من قومي ولست تعرفني ولا أعرفك » قال : « ان كنت من كرام العرب فسأعرفك » قال يزيد فكررت عليه راحلتي وقلت : « اني من كرام العرب » قال : « فممن انت ؟ » قلت : « من مصر » قال : « فمن الفرسان أنت أم من الارحاء ؟ » فعلمت انه أراد بالفرسان قيسا وبالارحاء خندفا . فقلت : « بل من الارحاء » قال : «أنت امرؤ من خندف » قلت : « نعم » قال : « من الارومة أنت أم من الجماجم ؟ » فعلمت أنه أراد بالارومة خزيمة وبالجماجم بني اد بن طابخة . قلت « بل من الجماجم » قال « فأنت امرؤ من بني اد بن طابخة » قلت « أجل » قال « فمن الدواني أنت أم من الصميم ؟ » فعلمت أنه أراد بالدواني الرباب ومزينة وبالصميم بني تميم . قلت « من الصميم » قال « فأنت اذا من بني تميم ؟ » قلت «أجل» قال « فمن الاكثـــرين انت أم من الاقلين أو من اخوانهم الآخرين ؟ »فعلمت أنه أراد بالاكثرين ولد زيد وبالاقلين ولد الحارث وباخوانهم الآخرين بني عمر وبني تميم . قلت «من الاكثرين » قال « فأنت اذا من ولد زيد؟» قلت « أجل » قال « فمن البحور أنت ، أم الذرى ، أم من الثماد ؟ » فعلمت أنه أراد بالبحور بني سعد وبالذرى بني مالك بن حنظلة وبالثماد امرأ القيس ابن زيد . قلت : «بل من الذرى » قال « فأنت رجل من بني مالك بن حنظلة ؟» قلت «أجل» قال : « فمن السحاب انت أم من الشهاب ام من اللباب ؟ » فعلمت انه اراد بالسحاب طهية وبالشهاب نهشلا وباللباب بني عبــد الله بن دارم . فقلت له « من اللباب » قال : « فأنت من بني عبد الله بن دارم ؟ »قلت: « أجل » قال : « فمن البيوت أنت أم من الدوائر ؟ » فعلمت أنه أراد بالبيوت ولد زرارة وبالدوائر الاحلاف .

قلت : « من البيوت » قال : « فأنت يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة بن عدس ، وقد كان لابيك امرأتان فأيهما أمك ؟ »

ولقد اخطأ من ظنوا أن العرب لم تكن لهم حضارة ، ولم يكونوا على شيء مما عليه الامم من الروابط ، فقد كانت لهم حضارات ، وملوكهم التبابعة فى اليمن معروف أمرهم عند المشتغلين بالتاريخ . وملوك الحيرة (فى العراق) مشهورون ... من عرف تاريخ الفرس عرفهم ، وان جهل تاريخ العرب . أولهم مالك بن فهم بن غنم بن قحطان، وكان ملكه فى أيام ملوك كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وكان ملكه فى أيام ملوك الطوائف الفارسيين، وحكم بعده أخوه عمرو بن فهم ، ثم تولى الملك بعد عمرو ابن أخيه جذيمة الابرش بن مالك بن فهم ، وجذيمة هذا هو صاحب الحديث المشهور مع الزباء (زنوبيا) صاحبة تدمر، وخلاصة الحديث فيما يروى مؤرخو العرب ان جذيمة قتل أباها فاحتالت عليه الزباء واطمعته فى نفسها حتى اغتر وتقدم اليها فقتلته واخذت بثأر أبيها . وبعد قتله انتقل الملك الى يد ابن أخته عمرو اللخمى جد الملوك المناذرة اللخميين

والملوك الغساسنة فى الشام مشهورون أيضا ، لا يجهلهم من عرف تاريخ الرومان اذا جهل تاريخ العرب . وأصل غسان من اليمن من بنى الازد بن الغوث ، تفرقوا من اليمن بسيل العرم ، ونزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا اليه، وكان قبلهم بالشام عرب يقال لهم الضجاعمة من سليح (بوزن مليح) فأخرجتهم غسان من ديارهم وقتلوا ملوكهم وصاروا موضعهم

ملوك العرب

وأول من مالك من غسان جفنة بن عمرو بن ثعلبة ، وكان

ابتداء ملكهم قبل الاسلام بأربعمائة سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، ولما ملك جفنة وقتل ملوك سليح دانت له قضاعة ومن بالشام من الروم ، وبني بالشام عدة مصانع . ولما مات ملك بعده ابنه عمرو بن جفنة ، وبنى بالشام عدة أديرة منها دير حالى ودير أيوب ودير هند ، ثم ملك بعده ابنه ثعلبة بن عمرو وبنى صرح الفرير فى أطراف حوران مما يلى البلقاء . ثم ملك الحارث بن ثعلبة ، ثم ملك بعده ابنه جبلة بن الحارث وبنى القناطر وأذرح والقسطل ، ثم ملك بعده ابنه الحارث ابن جبلة وكان مسكنه بالبلقاء فبنى بها الحفير ومصنعه ، ثم ملك بعده المنذر الاكبر بن الحارث بن جبلة الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة الاول ثم ملك بعده أخوه النعمان ابن الحارث ، ثم ملك بعده أخوه جبلة بن الحارث ، ثم ملك بعدهم أخوهم الايهم بن الحارث وبنى دير ضخم ودير النبوة . ثم ملك أخوهم عمرو بن الحارث ، ثم ملك جفنة الاصغر بن المنذر الاكبر ، وهو الذى أحرق الحيرة ، وبذلك سموا ولده آل محرق . ثم ملك بعده أخوه النعمان الاصغر ابن المنذر الاكبر ، ثم ملك النعمان بن عمرو بن المنذر ، وبنى قصر السويدا ولم يكن عمرو أبو النعمان المذكور ملكا ، وفى عمرو المذكور يقول النابغة الذبيانى :

على لعمرو نعمة بعد نعمة

لوالده ليست بذات عقارب

ثم ملك بعد النعمان المذكور ابنه جبلة بن النعمان ، وهو الذى قابل المنذر اللخمى بن ماء السماء ، ثم ملك بعده النعمان بن الايهم ابن الحارث ابن ثعلبة ، ثم ملك أخوه الحارث بن الايهم ، ثم ملك بعده ابنه النعمان ابن الحارث وهو الذى أصلح صهاريج الرصافة ، وكان قد خربها بعض ملوك الحيرة اللخميين ، ثم ملك بعده المنذر بن النعمان ، ثم ملك بعده أخوه عمرو بن النعمان ، ثم ملك أخوهما حجر

ابن النعمان ، ثم ملك ابنه الحارث بن حجر ، ثم ملك ابنه جبلة بن الحارث ، ثم ملك ابنه الحارث بن حجر ، ثم ملك ابنه النعمان بن الحارث ، ثم ملك بعده الايهم بن جبلة بن الحارث ، وهو صاحب تدمر ، وكان عامله يقال له الفين بن خسر وبنى له قصرا بالبرية عظيما ومصانع . ثم ملك بعده أخوه المنذر بن جبلة ثم ملك بعده أخوهما شراحيل بن جبلة ، ثم ملك أخوهم عمرو بن جبلة ، ثم ملك بعده ابن أخيه جبلة بن الحارث بن جبلة ، ثم ملك بعدهم جبلة بن الايهم بن جبلة ، وهو آخر ملوك بني غسان ، وهو الذى أسلم فى خلافة عمر ثم عاد الى الروم

ومن ملوك العرب ملوك كندة الذين من سلالتهم امرؤ القيس الشاعر المشهور ، أولهم حجر آكل المرار بن عمرو وخلفه على الملك ابنه عمرو المقصور ، سمى بالمقصور لانه اقتصر على ملك أبيه ثم ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو وقوى ملك الحارث المذكور لانه وافق كسرى قباذ بن فيروز على الزندقة والدخول فى مذهب مزدك ، فطرد قباذ المنذر بن ماء السماء اللخمى عن ملك الحيرة وملك الحارث المذكور موضعه فعظم شأن الحارث المذكور ، فلما ملك أنوشروان أعاد المنذر وطرد الحارث المذكور فهرب وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وبأربعين نفسا من ذوى قرباه فقتلهم المنذر فى ديار بنى مرين وهرب الحارث الى ديار كلب وبقى بها حتى مات . ومن أولاد الحارث هذا حجر أبو امرىء القيس الشاعر وكان حجر قد ملكه أبوه على بنى أسد ابن خزيمة فبقى أمره متماسكا فيهم مدة بعد ذلك ثم تنكروا عليه فقاتلهم وقهرهم ودخلوا فى طاعته ثم هجموا عليه بغتة وقتلوه غيلة ، وفى ذلك يقول ابنه امرؤ القيس أبياتا منها :

بنـو أسـد قتلوا ربهم   ألا كل شىء سواه جلل

وطالب امرؤ القيس بهذا الملك بعد أبيه فاستنجد ببكر

وتغلب على بنى أسد فأنجدوه، وهربت منهم بنو أسد وتوابعهم، فلم يظفر بهم ، ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموع امرىء القيس خوفا من المنذر، وخاف امرؤ القيس منه أيضا فصار يدخل على قبائل العرب ، وينتقل من اناس الى اناس حتى قصد السموال ابن عادياء فأكرمه وأنزله واقام عنده ، ثم سار الى ملك الروم مستنجدا به وأودع ادراعه عند السموءل ، وكانت مائة . وأثناء مسيره الى ملك الروم ، قال قصيدة تشعر بلسان خاله ومنها قوله :

تقطع اسباب اللبابة والهوى
عشية جاوزنا حماة وشيزرا

بكى صاحبى لما راى الدرب دونه
وايقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك انما
نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقد مات فى هذا السفر بعد عودته من عند قيصر

فبالله كيف تكون مجهولة الامة التى فيها الملوك والاقيال، وقد وقفت أمام الامم والاجيال سنين من الدهر ، لا يعرف لها حصر . . لعمرك أن القول بأن هؤلاء القوم كانوا مجهولين، وانهم كانوا مشتتين ، من غير ملك جامع ولا شرع وازع ، هو قول يرسله صاحبه دون أن يتعمق فى بحثه او دراسته

ومتى كان العرب معروفين عند غيرهم كما أوضحنا ــ ولدينا مزيد ــ كانوا هم أحق بمعرفة انفسهم وحفظ مفاخرهم وعصبياتهم . وما نقل الينا عنهم من ذلك ليس منه شىء فوق العقل ولا وراء الحس بل القرائن له شاهدة، وأمثاله أمام أعيننا مشاهدة ، واذا لم تجز الثقة بما ينقل من هذه الاخبار لم يكن غيرها أحق بالثقة لعمر الحق ، فان تزوير الاساطير لا يستبعد وقوعه فى كل أمة من الامم

وليست الكتب أحق بالصدق من القرائن الشاهدة والادلة النـــاطقة

فمن شاء ألا يثق بمنقول البتة لا يضرني رأيه ولا يضر التاريخ والمنقول ولا يضر العلماء الذين يحترمون التاريخ كثيرا ، وانما يضره وحده .. اذ يقلل استفادته من المنقول، ويكثر وساوسه وغروره ، ثم يصل الى درجة لايثق معها أحد بما هو منطقي أو معقول

ومن شاء أن يثق بالمنقول عن الامم دون العرب لاأناقشه لانه شهد لي على نفسه شهادة كافية ، ولا أزيده شيئاعلى ما أوضحت به أن العرب تجوز الثقة ببعض ما ينقل عنهم كما تجوز الثقة ببعض ما ينقل عن غيرهم (١)

من أجل هذا نؤمن بما نقل الينا من نسب سيدتنا التى نروى هنا سيرتها ، وهى خديجة القرشية ، فان هذا النقل من النقول التي لا تجد النفس حاجة للتردد فى قبولها

وقد قلنا آنفا ان لهؤلاء العرب المعروفين أصلين معروفين عندهم ، ومجهول ما وراءهما ، وهما عدنان وقحطان ، فأما قحطان فقد أخذت ذريته بحظها من الملك لان كل ملوك العرب المشهورين كانوا من ذريته واما عدنان فان حظ ذريته تأخر قليلا ، ولكنه كان لعظمه متجاوز النسبة أى انه لا نسبة بين حظ القحطانيين الذين كان يقوم منهم ملوك ثم ينطفىء مجدهم ، وحظ اخوانهم العدنانيين الذين أشرق منهم نور مبين بهر العالمين أجمعين ..

---

(١) قد يقال ان الثقة بما كان يرويه النسابون والمفاخرون من العرب فى عهد بداوتهم أجدر بالثقة من كثير من رواية غيرهم وتدوينه لما علم بالقطع من جودة حفظهم ومن نقد بعضهم لبعض بالشعر وفى المجامع وللحرية التى كانت عندهم ولقلة دواعى الكذب فى عهد البداوة بطبعها عند كل الامم

لذلك نلم هنا بذكر الذرية العدنانية دون الذرية القحطانية لاننا نريد أن يتعرف القارىء بقوم خديجة الخصوصيين . (فعدنان) ولد له (معد) ومعد ولد له (نزار) وأولاد نزار أربعة : مضر ، واياد ،وربيعة،وانمار ، وقد فارق اياد الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق . ومن ذريته كعب بن مامة الايادى المشهور بالجود وقس ابن ساعدة الايادى المشهور بالفصاحة . ومن ذرية ربيعة بن نزار قبائل عنزة وبكر ووائل وتغلب ، ومن تغلب كليب ملك بنى وائل الذى قتله جساس فنشبت لقتله الحرب بين بنى وائل وبين بنى بكر وبين بنى تغلب . ومن بنى بكر بن وائل بنو شيبان ، ومن مشهوريهم مرة وابنه جساس قاتل كليب وطرفة بن العبد الشاعر ، ومن بنى بكر بنو حنيفة .. ومن المشاهير منهم ، مسيلمة الكذاب

وولد لمضر بن نزار ، الياس وقيس عيلان ، وكثرت ذرية قيس هذا فمن ذريته قبائل هوازن ومن هوازن بنو سعد بن بكر الذين منهم (حليمة) مرضعة النبى (ص) ومن ذريته بنو كلاب وقبائل عقيل وبنو عامر وصعصعة وخفاجة وبنو هلال وثقيف وبنو نمير وباهلة ومازن وغطفان وبنو عبس الذين منهم عنترة المشهور وقبائل سليم وبنو ذبيان وبنو فزارة .وكان بين بنى عبس وبنى ذبيان حرب داحس التى ظلت أربعين عاما . ومن بنى ذبيان النابغة الذبيانى الشاعر المشهور

وولد لالياس بن مضر (مدركة) وطابخة ومن ذرية طابخة بنو تميم والرباب وبنو ضبة وبنو مزينة

وولد لمدركة بن الياس (خزيمة) وهذيل ، والى هذيل هذا تنتسب جميع قبائل الهذليين ومنهم أبو ذؤيب الهذلى الشاعر المشهور

وولد لخزيمة بن مدركة (كنانة) وأسد والهون وولد

لكنانة ابن خزيمة (النضر) وملكان وعبد مناة وعمرو وعامر ومالك فمن ملكان بنو ملكان ومن بنى عبد مناة بنو غفار ومن المشاهير منهم ، أبو ذر ، وبنو بكر . ومن بنى بكر هؤلاء الدئل ، ومن المعروفين منهم أبو الاسود الدؤلى ، وبنو ليث ، وبنو الحارثة وبنو مدلج وبنو ضمرة

وولد للنضر بن كنانة (مالك) ولم يعرف له ولد سواه وولد لمالك هذا (فهر) وفهر هذا هو الذى سمى قريشا ولم يولد لمالك غير فهر وولد لفهر (غالب) ومحارب والحارث ، فمن محارب بنو محارب ، ومن الحارث بنو الخلج وقد اشتهر منهم ، أبو عبيدة بن الجراح ، وجميع ذرارى فهر يقال لهم قرشيون

وولد لغالب بن فهر (لؤى) وتيم الأدرم ومن تيم المذكور بنو الأدرم ومعنى الأدرم ناقص الذقن

وولد للؤى بن غالب (كعب) وسعد وخزيمة والحارث وعامر وأسامة . ومن ذرية عامر بن كعب ، عمرو بن ود فارس العرب الذى قتله على بن أبى طالب

وولد لكعب بن لؤى : مرة ، وهصيص ، وعدى ، فمن هصيص بنو جمح ، وقد عرف منهم أمية بن خلف وأخوه أبى بن خلف وكلاهما كانا عدوين عظيمين للنبى (ص) ومن هصيص أيضا بنو سهم ، ومن عدى بنو عدى ، ومن المشهورين منهم عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد

وولد لمرة بن كعب (كلاب) وتيم ويقظة فمن تيم بنو تيم ومن المشاهير منهم أبو بكر الصديق وطلحة ، ومن يقظة بنو مخزوم ومن مشهوريهم خالد بن الوليد وابوجهل عمر بن هشام

وولد لكلاب بن مرة ، قصى ، وزهرة . ومن ذرية زهرة سعد ابن ابى وقاص وآمنة أم النبى (ص) وعبد الرحمن

ابن عوف . وقد كان قصى هذا عظيما فى قريش ، وهو الذى استعاد مفاتيح الكعبة من بنى خزاعة وهو الذى اثل مجدهم وولد لقصى بن كلاب (عبد مناف) وعبد الدار وعبد العزى فمن بنى عبد الدار بنوشيبة حجاب الكعبة ومن مشهوريهم النضر بن الحارث كان من أشـد أعداء النبى (ص) ، ومن عبد العزى أيضا سيدتنا خديجة بنت خويلد التى نروى سيرتها

وولد لعبد منـاف بن قصى هاشم وعبـد شـمس والمطلب ونوفل ، فمن عبدشمس أمية ومنه بنوأمية ، ومنهم عثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سفيان مؤسس الملك الأموى ومن المطلب بن عبـد مناف المطلبيون ومن ذريتهم الامـام الشافعى ومن نوفل النوفليون

وولد لهاشم عبد المطلب ، ولم يعرف له ولد سواه . وولد لعبد المطلب، عبد الله وحمزة والعباس جد الملوك العباسيين (١)

وولد لعبد الله بن عبد المطلب (محمد) النبى عليه الصلاة والسلام

(١) عبارته توهم ان هؤلاء جميع ولده وليس هذا بمراد ، ولكن من الغريب ان ينسى ابا طالب وهـو يذكر المشهورين ، ومن أشـهر بعد رسول الله (ص) من ابى طالب وولده على المرتضى ، وهو يذكر كلما ذكر سلسلة نسب احد ذريتـه من السبطين الطاهرين

الفصل الأول

حالة قريش الاجتماعية
حين البعثة

موطن خديجة

نشأت خديجة فى بلد شأنه عجيب ، قصى عن العمران، فى واد غير ذى زرع ، لاتنساب فيه المياه ، ولا تكتنفه الحدائق ، ولا تقوم الصناعات فيه دولة ، ولا يجد مبتغى الزخارف لديه مجالا ، ولكن الله أبدله جمالا معنويا ، وكساه جلالا روحانيا ، فالافئدة تهوى اليه ، والمطايا تزجى له من كل فج عميق

هذه البلدة المقصودة هى « مكة » المكرمة الشهيرة التى لايجهل اسمها وشهرتها أحد ، هى أم البلاد العربية واقعة فى القطعة المسماة بالحجاز من شبه جزيرة العرب ، قائمة بيوتها فى سفوح جبال محيطة بها

لم نقف على مقدار عدد سكانها فى تلك الايام التى نشأت فيها خديجة ، ولكن عدد مقاتليها لم يكن يتجاوز الالفين فى الغالب .. فيمكننا أن نقدر أهليها اذ ذاك بنحو خمسة عشر ألفا ، كلهم أولاد أب واحد ، قد ورثوا باستعدادهم لا بنسبهم هذا المقام الكريم والبلد الشريف ممن كان قبلهم من القبائل . وذلك أن قصى بن كلاب استطاع أن يجمع جميع ذرارى فهر بن مالك الى مكة ويزاحم بهم من كان فيها من القبائل ، فلم تلبث أن صارت لهم خاصة

وفى مكة هذه بيت مقدس قديم العهد يكاد يكون أول أمره مجهولا عند المشتغلين بالتاريخ اسمه بيت الله أو الكعبة ، وكان جميع عرب الحجاز يعظمون هذا البيت أكثر من كل البيوت التى شرفوها ويحجون اليه ،

ويتعارفون ويتعاطفون لديه

كانت هذه البلدة المكرمة ، تضم بين تلك الجبال المهيبة امة عظيمة الاستعداد للرقي متى مهد لها طريقه كما تضم الصدفة جوهرة لايظهر بهاؤها ورواؤها حتى تعالج ببعض المعالجة وتزال عنها القشور . أما من حيث المباني ، فلم تكن كما ينتظر ابن حضارة هـــذا العصر وانما كانت تضم منازل متواضعة هي بيوت ساذجة مبنية بالحجارة واللبن ، ومسقوفة بجذوع النخل خالية من الزخرف

وهذا البلد الامين باق الى يومنا هـــذا ، لم يزد على طول القـــرون الا تشريفا وتكريمـــا ، ولم يتغير فيه الا اشكال الابنية وازدهار التجارة .. والبيت المكـــرم لم يتغير وضعه ، ولا وضع الشعائر التى حوله، وانما بنيت هناك زيادات وتحسينات اقتضتها الدواعى

ومكة تعد اليـــوم (١) من جملة بلاد الدولة العليـــة العثمانية بيد انها لم تحرم حتى الآن من امير عربي يتصل نسبه بسيدتنا خديجة هذه ، ونفوذه فيها وفيما حولها نفوذ تام يستمده من السلطان العثمـــانى ومن احترام العرب لهذه السلالة

ومن الآثار المشهورة الباقية فى مكة بئر زمزم .. ويقولون ان قبيلة جرهم كانت قد ردمتها ثم حفرها عبد المطلب بن هاشم جد النبى صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك من مفاخر عبد المطلب لانه لم يكن بمكة من ماء الا فى آبار بعيدة عن البيت المكرم ، فلما حفر عبـــد المطلب زمزم فى جـــوار البيت انصرف الحجاج اليها . ولحفر زمزم حديث طويل خلاصته تدل على شـــــــغف عبد المطلب بتوفير الماء للحجاج .. فاذا تاملنا فى حرص القوم على مثل هذه العناية

(١) اى وقت طبع هذا الكتاب ،وهو عام ١٣٢٦ الهجرى الموافق عام ١٩٠٨ الميلادى

بالغرباء وأبناء السبيل نلمس جانبا من روح تربية الهمم وترقية العواطف فى ذلك المجتمع الذى نشأت فيه « خديجة »

حكومة جمهورية !

وكان من محاسن أهلها فى مجتمعهم ذلك ، أنهم كانوا يتبادلون وجهات النظر فى الامور العامة فيما بينهم ، فكأنهم كونوا حكومة جمهورية من غير رئيس لها .. وكان أمر هذه الجمهورية الغريبة الوضع سائرا على منتهى النظام ، ولكن لم يكن هذا النظام لسر فى ترتيب هذه الجمهورية فانها لا يؤمل منها فى حد ذاتها أن تؤدى الى نظام بالغ منتهى الجودة والقوة وانما ذلك أثر من اثار تربيتهم العامة فالاخبار كلها دالة على أن القوم بالجملة كانوا كأنهم مفطورون على التضامن التام ، فلذلك كان من مزايا ذلك الاجتماع الذى لانعهد له نظيرا أن كل فرد من افراده يستمتع بحرية تامة ، ولا يشعر بقهر حاكم ، ولا يخشى سطوة جبار ، وكل منهم فى أمن من ضياع الحقوق واعتداء الحدود . الجنايات قليلة ، وكرامة الناس محفوظة ، والآداب سليمة والحدود غير متجاوزة ، والحقوق مصونة ، وذرائع الفساد معدومة ، وسلامة الفطرة غالبة ، والمزايا التى بها كمال الانسانية راجحة

فاذا اضفنا الى كل ذلك احترام الغريب وتوقيره اياهم وتوقيه أذاهم ، نجد أن ذلك المجتمع لايكاد يوجد نظيره ولكن مع كل هذا الجمال والحسن والصلاح فى هذا المجتمع كان فيه عيوب اذا أزيلت يصبح أول مجتمع راق فى الدنيا ، وخليقا ان يفيض على جيرانه من بركات العقول التى أشربت بديع جماله ، واشرأبت الى عظيم

كماله ، ثم تاقت الى تعريف العالم بما ازدهر فى تلك البقعة التى لم تكن شيئا مذكورا ، من العقول المنيرة والارواح العالية

وقد تم ذلك ، فان الذى منه تنشأ الاسـباب واليه ترجع الامور قد أتاح لهذا البلد الجمهورى من ينظفه من تلك العيوب التى اشرنا اليها ، فكان بعـد ذلك كما هو المنتظر منه ، أى تم ظهوره ، فصار مصدر نور عظيم بلغ مشـارق الارض ومغـاربها فأخذ كل قوم منه بقـدر استعدادهم

أما الجمهورية التى أشرنا الى أنها كانت فى هذا البلد فقد اقاموها على أساس يأمنون معه من الزلزال ، وذلك أنهم رأوا الشرف انتهى الى عشرة رهط من عشرة بطون لاشتهارهم بأعمال مجيدة ، ثم أجمعـوا أمرهم على أن يكون النظر فى الامور العامة من خصائص هذه البيـوت العشرة وتراضوا على أن يكون لكل بيت من هذه العشرة وظيفة يختص بها ، تعد من مفاخره .. فهم بهذا الصنيع قد أخذوا بشىء من أصول حكم الاشراف ، وبذلك أعطوا الاعمال التى يمجد بها الفرد أو الاسرة حقها من التكريم والتشريف ، ليزداد نشاط أربابها وحرص غيرهم على التشبه بهم ، وأخذوا أيضا بشىء من أصول الحكم النيابى وهو أعظم دليل على وجود التضـامن الذى هو أحـد الاركان التى تحقق سعادة الامم.

نظام الشورى

أما الشـورى فقد وفروا منهم حظها ، وعظموا فى أنفسـهم حقها ، بما كانوا يشرعون من الاحكام والحدود، ويفصـلون فى بعض القضـايا والحقوق

وقد ألغوا الرئاسة العامة من بينهم كأنهم عدوها لغوا

اذا صدقوا فى تضامنهم وصلحوا فى تشاورهم وارادتهم الحق ، وقليلةالجدوى اذا مرض تضامنهم ووهى نظامهم . أو أنهم خشوا أن يكون حب الرئاسة ـ اذا وجدت ـ مدعاة لكثرة تنازعهم وتنافسهم فلا يأمنون بعد ذلك كثرة الفشل والشقاق وسقوط الهيبة من نفوس الغرباء ووقوع الفتور فى نفوس الاقربين . أو انهم أنفوا أن يملكوا عليهم أحدا لانهم كلهم يحملون بين أضالعهم نفوس الملوك ، وجمهوريتهم هذه لم يكن لها رئيس عام ولكن كانوا يقيمون واحدا فى وظيفة رئيس عام مؤقتا

أهل هذا المجتمع اللطيف لم يكونوا ذوى شغف بالمحاربات فعلاقتهم الخارجية مع جيرانهم من القبائل وأهل القرى والبلاد كانت حسنة . ولكن هذا لم يقعدهم عن أن يكون استعدادهم تاما لما ينزل بهم ، فان نزل بهم ما يطيقونه كشفوا عن قوتهم وتجلت بطولتهم من غير تريث ، وان نزل بهم مالا قبل لهم به تريثوا وعمدوا الى الاناة ، وفتقوا من الحيلة أبوابا يخرجون منها الى السعة من الضيق ، ومن فل الجيوش بالحسام الى فلها بالبيان ، وقد وهبوا من ذلك حظا عظيما

ومن أهم الاحداث الخارجية التى ضاقوا بها ذرعا هجوم القائد الحبشى «أبرهة» الذى كان قد استولى على بعض بلاد اليمن ، فقد دهمهم بجيش عظيم لم يروا لانفسهم طاقة به فقابله عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم وكان يومئذ رئيس قريش فأحسن مقابلته ولطف بعض الشىء من حدته التى كان بها مسوقا لهدم « بيت الله » على زعمه لاسباب فصلها رواة الاخبار ، ثم اصابته كارثة ، فاسرع بجيشه متقهقرا ، لانه رأى فى أهل هذا البلد مالم يكن يخطر له على بال ..

لقد رأى فى غزوه هذا لهؤلاء القوم عجبا من الامر ،

وذلك انه لما أتاهم أرسل اليهم رجلا حميريا كان معه اسمه حناطة وأوصاه أن يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها فيبلغه أن الملك لايريد الحرب وانما جاء لهدم هذا البيت ، فلما دخل حناطة مكة سال عن سيد قريش وشريفها فدلوه على عبد المطلب بن هاشم فجاءه وبلغه ما أمره به أبرهة فكان جواب عبد المطلب اننا لانريد حربه ، قال حناطة انه اوصانى بانه يريد مواجهتك أن لم تريدوا الحرب، فانطلق عبد المطلب مع حناطةاليه، فلما رآه أبرهة رأى العمامة والجلال فأعظمه وأكرمه وأخذه الى جانبه ، وقال للترجمان: سله أن يقول مايبدو له، فلم يكن من عبد المطلب الا أنه صرف لسانه عن الخوض فى عزم القائد على هدمالبيت وجداله فيه ، بلأظهر الاقتناع بضرورة المسالمة وعدم معارضة القائد فى أمر هذا المعبد وقال له اذا لم يكن لك غير هذا الأرب فرد علينا ابلنا . قال أبرهة للترجمان قل له قد كنت أعجبتنىحين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى .. أتكلمنى فى الاموال وتترك بيتا هو رمز دينك ودين آبائك ؟ فاجابه عبدالمطلب اننا نحن العرب أرباب المال وأما البيت فله رب هو سيحميه . فقال له انه ما كان ليمتنع منى ، فأجابه أنت وذاك ، ورد أبرهة الابل على عبد المطلب وبقى مصرا على عزمه ..ورجععبد المطلب الىقريش ، فأمرهم انيعتصموا بالجبال ، ولا يأتوا أمرا حتى يروا ماذا يكون ، وقد أتى من لدن العناية الالهية مالم يكن فىالحساب .. فان أبرهة لما أصبح وتهيا لدخول مكة ، برك الفيل الذى كان يركبه وحرن وأتوا كل باب من أبواب الحيل ليقوم ويمشى تلقاء مكة فلم يقم ، ثم رأوا حجارة تسقط عليهم من أرجل صنف من الطير فتشاءم أبرهة وتذكر ما أنذره به ذلك الجليل السنى الطلعة (عبد المطلب) من حماية هذا البيت

بطريقة لايبلغها عقله فخمدت فى صدره جذوة الحدة والتهور وخذل أمام هؤلاء القوم الذين حاربوه بالسلم ؛ ورموا عقله بسهم نافذ من بيان عبد المطلب مع رمى الطير جيشه بحجارة من سجيل

وهذه أكبر حوادثهم الخارجية واشهرها . وفى عام هذه الحادثة ولد النبى (ص) وقد سموه عام الفيل لما ذكرنا من قصته . ورجال هذه الحملة قد عرفوا بعدها باسم أصحاب الفيل ، وقد أشير الي مجمل هذه الحادثة فى القرآن المجيد

الفصل الثاني

بيوتات قريش

البيوت العشرة

أما بيوت الشرف العشرة فى قريش فهى :

هاشم ، وأمية ، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدى ، وجمح ، وسهم

وأما الامور التى كان توليها من خصائص هؤلاء فهى : السقاية ، والعمارة ، والعقاب ، والرفادة ، والحجابة ، والسدانة ، والندوة ، والمشورة ، والاشناق ، والقبة ، والاعنة ، والسفارة ، والايسار ، والاموال المحجرة

هذه الاسماء أكثرها اصطلاحى يحتاج الى تفسير يوافق العصر الذى نحن فيه حتى نفهم حقيقة ذلك المجتمع الذى سميناه جمهوريا على حسب اصطلاح عصرنا

فأما السقاية فقد تفهم من اللفظ نفسه أى سقاية الحجاج الذين كانوا يأتون « بيت الله » من كل جانب ولا يخفى على أحد ان العناية بهؤلاء الغرباء وتوزيع المياه عليهم من أهم الامور العامة فى ذلك الظرف ، وكان بنو هاشم هم أهل هذه الوظيفة

واما العمارة فهى منع من يتكلم فى « بيت الله » بكلام سفيه قبيح أو يرفع فيه صوته ، وكانت هذه الوظيفة أيضا فى بنى هاشم الذين منهم العباس صاحبها

وأما العقاب فهى راية قريش كان من شأنهم فيها انهم يحفظونها فى بيت من البيوت العشرة فاذا وقعت حرب أخرجوها فان اتفقوا على أحد منهم أعطوه راية العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه وقد

كانت هذه الوظيفة أي حفظ هذه الراية من خصائص بني أمية الذين منهم أبو سفيان صاحبها

وأما الرفادة فمعناها الاسعاف ، وكانوا يجمعون من انفسهم أموالا لرفــد المنقطعين من الحجاج وكانت الرفادة في بني نوفل الذين منهم الحارث بن عامر صاحبها

وأما السدانة والحجابة فمعناهما خدمة « بيت الله » وحفظ مفتاحه ، والظاهر من هذه الوظيفة أنها دينية ، ولكن متولي هذه الوظيفة الدينية مشترك مع عشـــيرته بتدبير الشئون الاجتماعية . وهذا العمل الديني نفسه قــد كان عند القوم من أهم الامور العــامة في مدينتهم وجمهوريتهم

وقد نســتطيع أن نشـــبهها من بعض الوجوه بوظائف كبار رؤساء الدين في الامم المتمــدنة اليوم ولا يخفى أن وظائفهم من متممات مدينتهم ، ولمن يتولونها شأن يذكر عندهم .. وقد كانت الحجابة والسدانة في بني عبدالدار الذين منهم عثمان بن طلحة صاحبها

وأما الندوة فمعناها ظاهر من اللفظ نفسه وكانت دار الندوة في بني عبد الدار ايضا

وأما المشورة فيريدون بها رئاســة الشــورى وليس ببعيد عن الصواب اذا شبهناها من بعض الوجوه برئاسة الوزراء أو رئاسة مجلس الاعيان وكانت هذه الوظيفة من خصــائص بني أســد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة ابن الاسود . وكان من شأنهم في هذه الوظيفة أن رؤساء قريش كانوا لا يجتمعــون على أمر حتى يعرضــوه على صاحب هذه الوظيفة فان أعجبه وافقهم عليه والا تخير وكانوا له أعوانا

وأما الاشـــناق فهي الديانات والمغــارم فقــد كانوا

يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرما أو دية وكان النهوض مع صاحب المغرم لجمع المطلوب من خصائص بني تيم الذين منهم ابو بكر الصديق ، فكان أبو بكر اذا نهض مع أحد، صدقه قريش، وأعانوا من نهض معه . وان نهض غيره خذلوه

وأما القبة فأشبه شيء بنظارة الحربية ولكن كانوا يعمدون اليها وقت الحرب فقط ولعل ذلك لسذاجة الحرب اذ ذاك او لاستعدادهم لها كل وقت اذا تأججت نيرانها ، وقد كانوا يضربون قبة فيجمعون اليها مايجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بني مخزوم الذين منهم خالد بن الوليد صاحبها

واما الاعنة فمعناها رئاسة الخيالة وكانت هذه الوظيفة للمخزومي أيضا وخالد صاحب هذه الوظيفة هو ذلك الفاتح العظيم القائد العام في الاسلام لجيوش أبي بكر خليفة النبي عليه الصلاة والسلام ، وما أظن تاريخ فن التعبئة اليوم يخلو من الاستئناس بذكر تلك التدابير المخزومية التي كان لها شأن عظيم في الاسلام كما هو شأنها في الجاهلية (أو الجمهورية)

وأما السفارة فالمراد بها ظاهر ، وقد كانوا يحتاجون الى السفارة في الحروب أي في أوائلها أو بعد شبوب نارها وتعاظم أوزارها ويحتاجون اليها اذا نافرهم احد للمفاخرة . وقد كانت هذه الوظيفة من خصائص بني عدى الذين منهم عمر بن الخطاب صاحبها ، وناهيك بذلك الخليفة الثاني الشهير بكل منقبة صالحة اذا كان سفير قوم

أما الايسار فهي الازلام والقداح كانوا يضربون بها اذا أرادوا أمرا ، وكان هذا من خرافاتهم وعيوبهم . ويحق لنا أن نبالغ في استهجان هذه الخرافة التي كانوا عليها الا أن يكون لهم شيء من النظر من وراء الخرافة كما هو الحال

في كثير من الامور الباطلة التى تروج فى امم بسماح من العقلاء او بترويج منهم لها ، وقد كانت هذه الوظيفة لبنى جمح الذين منهم صفوان بن امية صاحبها

واما الاموال المحجرة فهى الاموال التى سموها لآلهتهم ويصح أن تسمى هذه الاموال أم الاوقاف الخيرية اى ان بينهما تشابها . وقد كانت هذه الوظيفة اى تولى النظر فى الاموال المحجرة من خصائص بنى سهم الذين منهم الحارث بن قيس صاحبها

هذا ما كان من حيث ترتيب التضامن واقتسام الاعمال المهمة . واما الامور الجزئية التى كان الافراد يختلفون فيها فتفصل فيها كبار اسرهم وعشائرهم فى الغالب على طريقة التحكيم ، ولم يكن للقوم من شريعة مكتوبة وانما كانوا يقضون فى الامر كمايبدو لهمالصواب فيه ويقيسون الامور باشباهها

وهنا يخطر فى بال القارىء ان يسأل عن الضعيف الذى لا يأوى الى ركن شديد من رهطه كيف كان حاله اذا اهين أو ظلم فى ذلك المجتمع الذى لا شريعة فيه مكتوبة ولا قوة عمومية من شأنها وخصائصها دفع القوى عن الضعيف ؟ وقد بحثنا فى هذه المسألة المهمة فوجدنا القوم لم ينسوها ولم يهملوا شأنها وذلك انهم قرروا فى مؤتمر لهم حماية الضعيف والذود عنه ، وكان من حديث ذلك المؤتمر أن قبائل من قريش اجتمعت فى دار عبد الله ابن جدعان الشهير ، وتعاهدوا وتعاقدوا على الا يجدوا فى مكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك حلف الفضول وكانت الارهاط المتعاقدة بنى هاشم وبنى المطلب وبنى اسد ابن عبد العزى ، وبنى زهرة بن كلاب ، وبنى تيم بن مرة

نعم كان من النقص فى نظامهم ذلك ألا تكون خمـــاية الضعيف من خصائص الجمهور ، ولكن يظهر انهم كانوا يكتفـون فى الضعيف بأن يجيره واحد من بيوت العــزة والقوة فانه يصير مثل مجيره فى نظر الجمهور فلا يجسر أحد أن يظلمه ..

ويمكننا أن نستخلص من كل ماتقدم ، أن القوم كان لهم شبه قانون اساسى الا انه غير مكتوب ولم يكن لهم قوانين مدنية او جنائية قط .. ودور الامور المدنية يســير فى المجتمعات البسيطة الصغيرة فكل انسان يستطيع فيها أن يحتفظ بحقوقه أو يستعين عليها بالتحكيم وما أشبهه. وأما الحوادث الجنائية فلا يجوز اهمالها وتركها من غير ان يتولى الفصل فيها اناس تسندهم قوة تنفيذية، مخافة ان تكثر الجنايات ولكن تكافؤ القوى فى العشائر والبطون الساكنين فى بلد واحد ، قد يكون مانعا من كثرة الجنايات. واذا اضيف الى ذلك صلاح الاخلاق والتربية العمومية كان هذا نعم الظهير على تقليل العدوان. وقد كان القوم يتواصون باجتناب الظلم ، ولا سيما فى البلد الامين، ومن وصاياهم فى ذلك قول احدى نسائهم توصى ابنا لها :

أبنى لا تظـلم بمـكـ ـة لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنى ولا يغرنك الغرور
أبنى من يظـلم بمـكـ ـة يلق أطراف الشرور
أبنى يضرب وجهه ويلح بخـديه السعير
ابنى قـد جـربتها فوجدت ظالمها يبور
الله آمنهـــا ومـا بنيت بعرصتها قصور
والله آمن طـيرها والعصم تأمن فى ثبير

وتواصيهم بالنهى عن الظلم يغرينا بتعرف فلسفة القوم التى كانت تحفزهم الى ذلك

الفصل الثالث

ديانة أهل مكة
حين البعثة

دينهم قبل الاسلام

يبدو لنا ان العرب طرقوا ـ كسائر الامم ـ باب الضالة المنشودة ، وهى معرفة ما هى نفوسنا ، ومن أين مبدؤها ، والى أين منتهاها وماذا يزكيها وما الى ذلك..

نعم .. طرقوا هذا الباب ، ولكن لم يفتح لهم الطريق الموصل الي هذه الحقائق المكنونة بل كان نصيبهم كنصيب الاكثرين ظنونا ورجما بالغيب

أدرك القوم أن للعالم خالقا ومدبرا هو الذى خلق السموات والارض وما فيها .. وهو الذى خلق السمع والابصار والافئدة، وقالوا كما يقول سواهم انه تستحب الرغبة اليه والرهبة منه ، ولكن فى هذه السبيل تاهوا فتركوا ههنا العقل والتفكير وقلدوا الأمم واتخذوا من الحجارة أوثانا وقالوا ان تعظيم هذه الاوثان يقرب الى الله لان هذه الاوثان تماثيل أو كتماثيل لاناس صالحين محبوبين عند الله فتعظيمهم الى درجة العبادة يقرب الى الله ..

لقد أخطاوا فى ظنهم ان الله يحب هذه الحجارة .. وأخطأوا بزعمهم ان تنزيل العقول الى تعظم هذا الجماد (بهذه الصورة) تعظيما قلبيا يرضى الله تعالى . وحادوا عن الحق بتخيلهم أن هؤلاء يشفعون لهم عند الله تعالى

وقد كان الواجب الا يكون فى قلوبهم حب وتقديس الا للحى القيوم ولم يكن جائزا ان يشركوا به الجماد

وكانت لهم أخطاء أخرى كثيرة فى ذات الله سبحانه

وصفاته وافعاله فقد زعم بعضهم أن الملائكة بناته ، وزعم بعضهم ان الجن شركاؤه فى الملك ، وظنوا جميعهم ان لن يبعث الله بشرا ليعلمهم ويزكيهم

اخطأوا فى كل ذلك ، وتسفلت فيه عقولهم ، ولكن اعتقادهم بأن للعالم صانعا مدبرا عظيما هو رب الكل وانه يجب ان يتقرب اليه العبيد قد رقق — على ما فيه من النقص والبعد عن الطريق القويم — قلوب كثير منهم ، وكأنه اعدها لقبول حق سيظهر نوره فيمحق عقائدهم الخاطئة

المعاد والجزاء

والمشهور ان القوم لم يكونوا يقولون بالمعاد والجزاء فى الآخرة ، ولكن الحقيقة انهم كانوا فى ريب وشك ، اى لم يكونوا جازمين بشيء فى هذا الباب ، وكان أناس منهم تذهب بهم عقولهم الى وجوب المعاد والجزاء فى الآخرة ، ولكن عدم اعتقادهم بالجزاء والعقاب ، لم يكن مانعا من ان تكون قلوبهم محبة للاخلاق الكريمة والاعمال الطيبة التى تحث علي مثلها الديانات من البر والاحسان والعدل والصدق والكرم وحماية الضعيف وترك العدوان والابتعاد عن الخيانة والبغى وما اليها فى الفضائل المعروفة وعقولهم استساغت تعظيم الجماد لان الوثنية كانت الغالبة فى عصرهم ، ولا يبعد عن الصواب من يقول أن الوثنية هى الغالبة على طباع البشر كلهم ، باستثناء عدد قليل

فاذا صرفنا النظر عن تلوث عقولهم بنزعات الوثنية ، لا نجد من بعدها هذه العقول مظلمة وهى التى أضاءت لهم فعرفوا بها الاخلاق الصالحة والفاسدة ، ولم يكن يعوزهم الا أن يقوم فيهم مرشد يهديهم للتى هى أقوم من طرائق الاعتقاد بالله وصفاته والتقرب اليه بتوجيه

الوجه واسلام القلب اليه ، ولولا أن للقوم عقولا صافية لماكان يرجى لمجيء المرشد من فائدة لانه لايظهر نورالارشاد الا فى اللوح النقى ، وقد كان الرجاء بالقوم فى محله، فانه لما جاء المرشد لقى تربة صالحة مهيـــــاة لانبات ما اراد أن يلقى فيها ، والى جانبها أخرى فيها من أعشـــــــاب التمسك بالقديم مايحتاج الى زمن فى معالجة ازالته وقليل من الاراضى كانت سبخة ليس فى الامكان أن ينتج فيها البذار

لا يهولنك من القوم سذاجة عقولهم، فيما كانوا يعتقدون، فان البشر كلهم الا قليلا كانوا ولا يزالون يعتقدون أمثال معتقدات القوم . ومن المؤسف ان هذا العيب عام وراسخ فى البشر ، ومن أصعب الاشياء استئصال جذوره. ولاندرى السر فى هذا . ولكن انظر الى هذه الجماعة القايلة كيف أقامت لها شأنا رفيعـا فى العـرب كلهم اذ غلبتهم على التوطن فى جوار البيت المكرم ، وأحسنت المقام فى هذا الجوار الشريف فقامت بحقوق حجاجه من ســـقايتهم ورفادتهم ، وقامت بحقوق المستضعفين فيه من حمايتهم وتأمينهم ، وقامت بسنن التضامن والتعـاون والتواصى بالعدل والاحسان حتى رضى العرب بتقديمهم عليهم اذا تقـدموا واياهم لامر عظيم وشرف جسـيم ، على أنهم ليسوا فى العرب أكثر عددا، ولا أقوى ناصرا. . ولاعجب، فقد خصهم الله بافراد كانوا فى نقاء القلوب آية ، وبلغوا فى صفاء العقول الغاية ، والامم والشعوب تحيا بأفراد وتموت بأفراد

واذا سخر الاله سعيدا لاناس فانهم سعداء

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد ماكانوا يستمتعون به من حرية، فانهم لما خلصوا من تمليك أحد عليهم خلصوا

من شرور كثيرة تتبع التمليك فكانت معاشراتهم ساذجة خالية من عبارات الملق والخنوع ، وكانت مكاسبهم لانفسهم لايشاركهم فيها أحد ، ولا يعرفون المغارم المرتبة والاتاوات المضروبة

وهم فى أمن من حيف القضاء لانهم يتقاضون يوم يشاءون الى من يرضونه من كبرائهم ولا قانون لهم فى المسائل الجزئية ترتعد من احكامه فرائصهم وانما يخشون باس بعضهم البعض ، فيرتدعون عن الشر الذى يثار له العموم أو يثار له من اصابهم خاصة

حرية التدين

وكان جائزا لاحدهم ان يتدين كما يريد بشرط الا يعيب دينهم الذى كانوا عليه ولا يدعو الى ابطاله ، وقد كان لبعضهم فلسفة فى البعث والجزاء فى العالم الآخر ولبعضهم رأى فى الانصراف عن عبادة الاوثان ، ولبعضهم ميل الى تقليد أهل الكتاب ، فلم يكونوا يحاسبون احدا على مثل هذا

ولم يكن لديهم نوع من المبايعات حراما بل يبيعون ويشترون كما يشاءون وكل منهم عارف بمصلحته ولهم همة فى التجارة، والرحلة فيها الى الشام وغيرها فى الصيف والشتاء

اما اهل الصنعة فيهم، فلم يكن لهم من قيمة، والغالب أن يكون الصناع غرباء

ولهم ازاء حسنة الحرية سيئة كبيرة وهى امتهان الرقيق واحتقاره وتكليفه الشاق من الامور ولم يكن بعضهم يأنف من اكراه امائه على البغاء لياخذ مايعطين فى سبيله

وأما نساؤهم الحرائر فلم يكن جائزا لهن الزنا ولاسيما اذا كان لهن بعولة ، بيد أنه لم ينقل لنا انهم رتبوا على الزانيات عقابا ، بل كان عقابهن متروكا لرأى أهلهن اذا شاءوا

وكان لنسائهم كثير من الحقوق ولهن أن يواجهن الرجال ويبرزن أمامهم حاسرات، ويمكن أن يقال بالاجمال أن حرية الرجال والنساء كانت تامة ، ولذلك نعجب من قوم هذا شأنهم اذا رأيناهم لم يرثوا لحال الرقيق ولم يذكروا أنه يستحق الرحمة لانه سلب أفضل نعمة وهبها لهم ربهم الاعلى ، الذى خلق فسوى

الفصل الرابع

مقام المرأة عند قوم خديجة

حمقى الفقراء
يئدون البنات

لم يكن مقام المرأة ــ بين قوم خديجة ــ مقاما مهينا ، بل كان لها لديهم مقام كريم . وجل ما عرف عنهم من انحطاط مقام المرأة انهم كانوا يكرهون البنات وانهم كانوا يئدونهن أى يدفنونهن فى التراب ، وهن على قيد الحياة (١٦ : ٥٨) « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم (٥٦) يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء مايحكمون»

هذا ماعرف عنهم ، ومن أخذ هذا الامر على ظاهره واطلاقه يستخف بهؤلاء القوم لان انحطاط قيمة المرأة ومقامها عندهم دليل على انحطاطهم ، ولكن أخذ الامرعلى ظاهره واطلاقه ليس من شأن الذين يحبون معرفة الحقائق

ان كل بلد فيها الفقراء وذوو اليسار ، وفيها الحمقى وأولو الالباب ، وفيها القساة وأهل الرحمة . فليس من المنطق ولا العدل أن نتخذ من سلوك بعض الحمقى أو القساة أو الفقراء فى بلد مثالا ومرآة لسلوك مجموع أهل البلد

كان فى مكة فقراء وحمقى وقساة ، كما هو الحال فى سائر البلاد .. وكان اناس قليلون من هؤلاء ، ياتون هذا العمل الفظيع، نعنى الوأد (دفن البنات وهن أحياء فى مرحلة الطفولة) فلا ينبغى أن يقال بدون تحفظ أن القوم

الذين نشأت منهم سيدتنا هذه كانوا يئدون البنات . ان قوما نبغت فيهم مثل هذه السيدة لايعقل أن يكونوا قتلة بنات ، كلا انهم لم يكونوا يقتلون الاجساد ، ولم يكونوا يقتلون منهن العقول والارادات ، واذا كان قدقتل البعض منهن ، فذلك عمل نفر يكادون لا يذكرون من فقرائهم أو حمقاهم أو قساتهم

ولم يكن الذين يئدون بناتهم يأتون هذا العمل الفظيع حقدا على هذه النسمات البريئة ، او احتقارا لجنس المرأة كما يلوح لاول وهلة بل كان يسوقهم الى ذلك فساد فى الخيال وضعف عظيم فى الطبيعة . وان الخيال الفاسد ليزين المنكر حتى يظنه صاحبه من المعروف كما تلمس أحيانا كثيرة

كان منهم فقراء يزين لهم خيالهم الفاسد أن فتياتهم اذا ظللن أحياء ربما نالهن ضيم من فقرهم ، وربما عجزوا عن أن يكرموهن بنفقة تساويهن بأترابهن ، من ذوى قرباهن أو جوارهن ، فيرون مواراتهن فى التراب ، خيرا لهن من بقائهن دون الاتراب

لانكران للحق أن هذا الخيال باطل ولا سيما عند المؤمنين ولكن هذا الخيال الباطل لم يوح الى صاحبه أن الفتاة شجرة خبيثة يجب اجتثاثها قبل النمو ويستحسن حرمان الوجود من ثمراتها وانما زين له سوء عمله هذا من طريق أخرى هى كرامة فتاته

يتخيل ذلك المسكين أن فتاته ان عاشت تعيش مثله فى آلام تذيب الفؤاد ، ولو قد من الجلمود ، ومنغصات تسود الوجوه البيض وتبيض الشعور السود ، فيزين له خياله أن يحمى كريمته ، فلذة كبده ، من مثل هذه الحياة التى بلاها فاكتوى بنارها ، وان يتقى بألم ساعة عند توديعها ومواراتها التراب آلام سنين يراها فيها بائسة شقية

محرومة من متع الحياة ، كما يتقى أحدهم بألم الكى آلام سقم مزمن

وكان منهم حمقى توسوس لهم شياطين الخواطر بأن الفتاة ربما وقعت فى يد من لا يرعى له ولها حرمة . ولو قضى على كل البشر بمثل هذه الوساوس لآذنت الدنيا بالانقضاء ، ولكن الخالق لم يشأ الا أن تكون الدنيا على هذا النمط من الاستمرار ، لذلك لم يدع لهذه الوساوس سلطانا على قلوب البشر الا قليلا ممن بلغنا شىء عنهم من هذا القبيل

ساء ما يزين لهؤلاء الفقراء والحمقى الذين كبر نصيبهم من القسوة مع نصيبهم من الفقر والحمق ، فلو علم المعدم ان اليسار ليس محتكرا فى بيوت أو أسر أو أشخاص معينة ، وانما يتاح للعاملين المحسنين مع الظروف المناسبة ، وان قيمة كل امرىء ما يحسنه ، وان ليس عليه الا أن يعمل بالمعروف عند قومه ويصبر قليلا حتى يتاح له ما يقوم به شأنه ، لما سهل عليه أن يقصف بيديه غصنا منه أنبته الله ولا لذة أكبر من تربيته وتنميته

ولو علم الاحمق أن الفرار من توهم العدو نهاية الجبن وغاية الخذلان ويثمر أقصى درجات الخسران لرأى أنه جدير بالبكاء على حظه من ضعف النفس

***

وهيهات أن يكون قوم « خديجة » على هذا النمط من ضعف النفوس وهم المعروفون بالشجاعة والاقدام . وأى قوم تطيب لهم الحياة اذا كانوا لا يرون سلامة حرمهم الا بافنائها ؟ وانى يجد الشخص الطمأنينة اذا كان دأبه الهرب ، من غير حاجة أو طلب ؟

اما انهم كانوا يكرهون البنات اذا بشر أحدهم بهن فلا يستطيع أحد انكاره ، لان القرآن المجيد هو الذى سجل

هذه الحقيقة التاريخية وقد سرى هذا الى نفوسهم من شدة احتياجهم الى البنين الذين سيكونون المدافعين فى ذلك المجتمع القائم بنفسه قيام المجتمعات الكبيرة . وليس معناه ان البنت تظل طول حياتها مكروهة ، وأن النساء لا قيمة لهن ولا كرامة عند أولئك القوم . وماذنب القوم اذا كان نفر من فقرائهم وحمقاهم قد ضعفت نفوسهم فاستسلموا الى الراحة والخنوع ، مما يلذ للكرام التعب فيه ؟ وما اجرامهم الى الانسانية من بعد ان يقوم أمجادهم بافتداء كثير من الفتيات اللاتى تصدى آباؤهن لوأدهن من الفقر ؟

حقوق المراة

ان العرب كافة ، وقريشا خاصة ، كانوا يكرمون المراة ولا يهينونها ، وقد أعطوا النساء كل ما لهن من الحقوق فى نظر العدل ، ولم ينسوا ان المراة — كالرجل — مخلوق يحمل عقلا له ادراك ، وان لهذا الانسان المؤنث نفسا كنفس ذلك الانسان المذكر تغضب وترضى وتنعم وتشقى فأعطوا عقلها ونفسها حقيهما

وقد رووا لنا أن هندا بنت عتبة وهى من قوم سيدتنا « خديجة » جاءها أبوها يشاورها فى رجلين من قومها رغبا فى الزواج بها ، فقالت : صفهما لى ، فقال : « اما احدهما ففى ثروة وسعة من العيش ان تابعته تابعك ، وان ملت عنه حط اليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله ، واما الآخر فموسع عليه ، منظور اليه ، فى الحسب الحسيب ، والرأى الاريب ، مدره أرومته ، وعن عشيرته ، شديد الغيرة ، لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله » (*) فقالت « يا أبت الاول سيد مضياع للحرة فما عست أن تلين بعد ابائها وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشرت ، وخافها

(*) كناية عن اليقظة

أهلها فأمنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فان جاءت بولد أحمقت ، وان أنجبت فعن خطأ أنجبت ، فاطو ذكر هذا عنى ، ولا تسمه على بعد . وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة ، الحرة العفيفة ، وانى لاخلاق مثل هذا لموافقة فزوجنيه » فزوجها الثانى وكان هو أبا سفيان بن حرب فولدت منه معاوية مؤسس دولة بنى أمية الشهيرة واحد نجباء العرب ودهاتهم

فهكذا كان مقام المرأة فى قوم سيدتنا « خديجة » لا يفتات أهلها عليها فى حقها ، وهكذا كان راى ذوات الحجى والزكانة منهن

اشتراك النساء فى السياسة

ولقد كان كثير من نساء العرب يشاركن فى السياسة والشئون العامة ، وناهيك ان الحرب التى ظلت مستعرة نحوا من اربعين سنة بين بنى ذبيان وبنى عبس لم يفكر فى اطفاء نارها الا امرأة ولم تتمكن من اطفائها الا بما لها من المكانة وحسن الراى ، وذلك ان بيهسة بنت أوث بن حارثة ابن لام الطائى لما زوجها ابوها من الحارث بن عوف المرى وأراد أن يدخل عليها قالت : أتتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضهم بعضا ؟ — تعنى بنى عبس وبنى ذبيان — فقال لها : وبماذا تشيرين ؟ قالت : أخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع الى .. فخرج وعرض الامر لخارجة بن سنان فاستحسن ذلك ، وقاما كلاهما بهذا الامر ، فتم الصلح ودفعا الديات من أموالهما

وحسبك من اشتهرن من العربيات فى السياسة ، منهن اللاتى كن من شيعة الامام على أيام مناصبة معاوية له كسودة بنت عمارة بن الاشتر الهمدانية ، وبكارة الهلالية ، والزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية ، وأم سنان بنت جشمة بن خرشة المدحجية ، وعكرشة بنت الاطرش بن

رواحة ودرامية الحجونية ، وأم الخير بنت الحريش بنت سراقة البارقي ، واروى بنت الحارث بن عبد المطلب الهاشمية

وفدت سودة على معاوية بعد موت علي فاستأذنت عليه فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت سودة فقال لها كيف أنت يا ابنة الاشتر ؟ قالت بخير يا أمير المؤمنين . قال لها أنت القائلة لأخيك :

شمر كفعل أبيك ياابن عمارة   يوم الطعان وملتقى الاقران
وانصر عليا والحسين ورهطه   واقصد لهند وابنها بهوان
ان الامام اخا النبي محمد (١)   علم الهدى ومنارة الايمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه   قدما بأبيض صارم وسنان

قالت : « يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبتر الذنب ، فدع عنك تذكار ما قد نسي » فقال : « هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى » فقالت : « صدقت والله يا أمير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وان صخرا لتأتم الهداة به   كأنه علم في رأسه نار

وبالله أسألك يا أمير المؤمنين اعفائي مما استعفيته» قال: « قد فعلت فقولي حاجتك» فقالت: « يا أمير المؤمنين،انك للناس سيد ، ولأمورهم مقلد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ، ويبسط بسلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسألنا الجليلة ، هذا ابن ارطاة قدم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فأما عزلته فشكرناك ، واما لا فعرفناك » فقال معاوية : « اياي تهددين بقومك ؟

---

(١) اخوة الدين

والله لقد هممت أن أردك اليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك » فسكتت ثم قالت :

صلى الاله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغى به ثمنا فصار بالحق والايمان مقرونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبى طالب رحمه الله تعالى ، قال : ما أرى عليك منه أثرا ، قالت: بلى أتيته يوما فى رجل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين فوجدته قائما فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل فبكى ثم رفع يديه الى السماء فقال « اللهم انى لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك » ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم ، قد جاءتكم موعظة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الارض مفسدين ، بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ) اذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يديك حتى يأتى من يقبضه منك والسلام » قال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت « ألى خاصة أم لقومى عامة ؟ » فقال : « ماأنت وغيرك ؟ » قالت : « هى والله الفحشاء واللؤم ان كان عدلا شاملا وألا يسعنى ما يسع قومى . قال : اكتبوا لها بحاجتها

ووفدت بكارة الهلالية أيضا على معاوية بعد موت على ، فدخلت عليه ، وكان بحضرته عمرو بن العاص ومروان وسعيد بن العاص فجعلوا يذكرونها بأقوالها التى قالتها فى مشايعة على ومعاداة معاوية ، فقالت أنا والله قائلة ماقالوا وما خفى عنك منى أكثر ، فضحك وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك

وكتب معاوية الى عامله بالكوفة أن يوفد اليه الزرقاء ابنة عدى بن قيس الهمدانية مع ثقة من ذوى محارمها

وعدة من فرسان قومها ، وأن يوسع لها في النفقة ، فلما وفدت على معاوية قال : مرحبا ، قدمت خير مقدم قدمه وافد كيف حالك ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، ثم قال لها ألست الراكبة الجمل الاحمر والواقفة بين الصفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب فماحملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب ، ولا يعود ما ذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث بعده الامر . قال لها : أتحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت : لا والله لا أحفظه ، قال : لكني أحفظه ، وتلا عليها خطبة من خطبها التي هي في منتهى البلاغة ، ثم قال لها : والله يا زرقاء لقد شاركت عليا في كل دم سفكه ، قالت : أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك ، فمثلك يبشر بخير ويسر جليسه ، قال : أو يسرك ذلك ؟ قالت : نعم والله ، فقال : والله لو فاؤكم بعد موته أعجب من حبكم له في حياته ، اذكري حاجتك ، فقالت : يا أمير المؤمنين آليت على نفسي الا أسأل أميرا اعنت عليه ابدا . ومثلك من أعطى من غير سؤال ، وجاد عن غير طلب . قال : صدقت ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز

ووفدت عليه أيضا أم سنان بنت جشمة وعكرشة بنت الاطرش ، ولما حج سأل عن دارمية الحجونية فجيء بها اليه فقال لها بعثت اليك لاسألك علام أحببت عليا وأبغضتني ، وواليته وعاديتني ؟ فاستعفته فلم يفعل فقالت له : أحببت عليا على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالامر ، وطلبتك ما ليس لك بالحق ، وواليت عليا على حبه المساكين ، واعظامه لاهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك في القضاء ، وحكمك بالهوى . ثم قال لها : ياهذه هل رأيت عليا ؟ قالت : أي والله ، قال : فكيف رأيته ؟ قالت : رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله

النعمة التى شغلتك . قال : فهل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدأ الطست قال : صدقت فهل لك من حاجة ؟ قالت : نعم تعطينى مائة ناقة حمراء ، قال : ماذا تصنعين بها ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار ، واستحيى بها الكبار ، واكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر ، قال : فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل على بن ابى طالب ؟ قالت : سبحان الله أو دونه ، فقال أما والله لو كان على حيا ما أعطاك منها شيئا ، قالت : لا والله ولا وبرة من مال المسلمين

وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ، ووفدت عليه أروى بنت الحارث وجرى لهما معه حديث من مثل ما تقدم

فهكذا كان مقام المراة العربية ، من أخوات سيدتنا القرشية ، وهكذا كان حظهن من الفصاحة والحصافة ، ومبلغهن من المشاركة فى الامور العامة ، والاخذ بالاسباب والمشايعة لبعض الاحزاب ، وما أتينا الا باليسير توطئة لمعرفة مقام السيدة خديجة فى قومها

الفصل الخامس

مقام خديجة عند قومها

صفات خديجة

ما أكرم هذا المقام ! وأى بليغ لا تأخذه الهيبة اذا دعى لتصوير هذه المنزلة ؟

سيدة بطلعتها الفخامة والشرف يتجليان ، والجمال والكمال يتألقان :

ومزايا كالزهر نفحا وطيبا وكزهر السما بهاء ونورا

من شرف حسب ، الى كرم محتد ، الى سؤدد قبيل ، الى عز عشيرة ، الى جمال ذات ، الى كمال صفات ، الى فضل حجى ، الى طهارة نفس ، ذلك ما كانت تتزين به سيدتنا « خديجة » وذلك ما كانت تحل به بين قومها فى المكانة العليا والمقام الكريم

هذه المزايا ليست بالبدع من الاشياء ، وليس نبؤها بغريب بين الانباء بل هى معهودة فى كثير من النسوة ، ومع ذلك لم يكن لاسمهن نصيب غير الخمول ، قد طويت أعلامهن ، ولم ينشر ذكرهن ، ولم يسم فى أقوامهن مقامهن ، فكيف تسامى اسم « خديجة » وعلت منزلتها ؟

انما كان لخديجة ذلك الشرف بشىء آخر غير مزاياها ، ذلك الشىء هو ارتقاء مدارك قومها وسلامة أذواقهم وحسن انتظام مجتمعهم . وليس بكاف لتعالى امرىء أن يكون كاملا بل لابد مع ذلك من احاطة قومه علما بفضائله ووجود ميل فيهم للفضائل والكمال ، ومن المشهور أن الحجارة الكريمة عند من لا يعرف مزيتها لا قيمة لها وهى عند عارفيها فوق القيم ، فالحق أن ارتفاع من يستحق

الرفعة فى قوم ليس دليلا على فضله وسعادة جده وحده بل هو دليل أيضا على فضل أولئك القوم وسعادة جدهم، فقد ربح قوم كان للافاضل منزلة كريمة لديهم ، وخسر قوم لا يعلو بينهم الا من استعان بمختلف الوان الحيل والخداع ، والنقائص المتغلبة على الطباع

واذا كنا معجبين بالسيدة « خديجة » لوفرة مزاياها الكريمة ، فنحن بقومها الذين شرفوا هذه المزايا أشد اعجابا . وليست « خديجة » وحدها هى التى نالت مقاما كريما فى قريش بل كثير من فضليات نسائهم نلن المقام الكريم فيهم ، وكان لكثير منهن آثار مشكورة فى مناصرة الاسلام الذى نقل العرب وغيرهم الى أعلى مما كانوا فيه ، ولم يستطعن ذلك الا بما لهن من القدر الذى يليق بانسان ذى رأى معدود ، وعقل مذكور ، ونفس مشابهة . وحسبك من هذا أن ذلك الرجل العظيم عمر بن الخطاب أبا العدل وأبا الفتوح وأبا السياسة والادارة لم يكن اسلامه الا بمحاورة سيدة من أولئك السيدات القرشيات هى اخته فاطمة زوجة ابن عمه سعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل

نحن نعلم أن أكثر الناس يمرون بالمزية يعهدون أمثالها، فلا يلتفتون اليها مالم تكن رائعة وفوق ما اعتادوا . وهذا عندنا ضار لان فيما يعهدونه أيضا ما يستحق الالتفات اليه ، ويغرى بالانتفاع منه ان كان مواطنا نافعا ، والتغافل عن الانسان النافع الموهوب يؤدى الى الحرمان من مواهبه الفذة وصفاته غير المعهودة

وليس من شك فى أن كثيرا من الاشياء التى صرفتنا الالفة عن اجلال شأنها هى من جلالة الشأن عند الامعان فوق ما نتصور . وفى كثير مما لا نتأمل فيه منها ما تخر الافكار صاغرة أمام زاخر فوائده وباهر أسراره ، فلذلك

أحببنا أن نعرض للقارىء عرضا سريعا تفصيل تلك المزايا التي شرفها قوم «خديجة» حتى كانت بها كريمة المقام فيهم لانه ربما اختلج في صدره التعجب من اكبارنا شأن مزايا معهودة في كثيرين ، وقد يكون قارئنا من حزب الاكثرين الذين لا يبالون بالمعهودات ، ولا يطربون بغير الغرائب

نعم .. نحن لم نطرف بما فوق المعهود ، ولم نهد ما وراء المشهود ، ولا عذنا بمبتدعات التصور ، ولا لذنا بغرائب الحوادث ، وشواذ المصادفة ، وخوارق العادة ، ولم نمت الى أفئدة القراء الا بمعروف له أمثال ، ومألوف لا تضيق بتصديقه الافكار ، ولكن الامر عندنا في هذه المعهودات على ما قلنا . واذا ثبنا اليها بنظر الامعان غير وسنانة عين بصيرتنا ألفينا فيها عند سأم النفس من لذة الحس ، أعظم ما نتوق اليه من لذة التصور وفائدة الادراك

واذا كانت الحياة واحدة كان جديرا بنا أن نقف متذكرين هذه الوحدة أبدا أمام كثرة اختلاف المظاهر وشدة احتجاب الاسرار ، ولم يكن حسنا بنا أن ننسى أحاسن ما تلده لنا هذه الام من الصور التي لا تحصى

اننا بتذكرنا من سادوا وشادوا ، وبتذكرنا من صلحوا وأصلحوا ، وبتذكرنا من أوجدوا وابتدعوا .. نتذكر تاريخ أمنا الحياة وترتاح نفوسنا باستجلاء أحسن صورها ، وتتوارد عليها اللذة باشتياقها الى نصيب من ثروة تلك الأم التي جادت بمقادير منها عظيمة على اخوتنا أصحاب تلك المظاهر ولابسي تلك الصور ، ولم لا نتوق الى حديث ذلك التراث وهو يملأ كنوزا ان عجزت أفكارنا أن تحيط بكنه جواهره خبرا فهي لا تعجز ان تأتينا بلذة من التأمل في بديع كيانها والامل ببلوغ ما تميل اليه النفس منها

الفصل السادس

فضائل خديجة

المثـــال الاســـنى

تبـــارك واهب الحياة ، فقد أبدع لنـــا فى « خديجة » المثال الأسنى منها ، وأطلع لنا فى شخصها زواهر الانسانية الفضلى ، وبنور هـــذه الزواهر رأينـــا مدارك قريش فى الافق الاعلى ، وتربيتهم الادبية والعقلية فى المنزلة العليا

نحن معشر بنى الحياة متفاوتون كثيرا فى قوى النفوس واكثرنا فى الحقيقة مغبـــون الحظ منقوص النصيب من القوى التى تكون بها الحيـــاة هنيـــئة شريفة مســـعدة لصاحبها وغيره ، وقليل منا من رزقوا فضـــلا من هـــذه القوى النافعة الآتية بالغبطة والحبـــور . ولدى التأمل نجد الاســـتعداد الفطرى للشخص هو الاساس فى حسن الحظ من هذه القوى النافعة ثم للتربية دخل كبير ، فاذا اجتمع فى الشـــخص استعداد حسن وتربية حســـنة كان حظه عظيما من فضائل النفس . وقد اجتمعا فى «خديجة» فرأينا فى سيرتها ذلك المثال النادر ، والكمال العظيم

عرفنا حسن استعدادها ، لان التربية وحدها لا تفعل شيئا فى جوهر النفس اذا لم يكن مهيأ للافادة منها ، كما لا يصلح الماء ، لان تطبع فيه ما تشاء ، وعرفنا حسن تربيتها لان الاستعداد وحده لا يســـير بصـــاحبه الى المرغوب فى المجتمع . ومن حسن استعداد هـــذه الســـيدة وحسن تربيتها عرفنا شيا آخر جديرا بالتنويه ، وقلما رأينا من نوه به أو التفت اليه ، فلذلك عنينا به نحن كثيرا فى صدد هذه السيرة وهو ارتقاء قوم « خديجة » ارتقاء عظيما فان

التربية الشخصية مقتبسة فى الغالب من التربية العامة ، والمجتمع غالبا اشبه بالمرآة يرينا من الاشياء مقبولا ومردودا ومسكوتا عنه . وتشتهر المقبولات حتى يطلق عليها اسم المعروف ، والمردودات حتى يطلق عليها اسم المنكر . ويضطر الناس الى تقرير تربية عامة ، هى الا يخالف المعروف ولا يوافق المنكر ، ويبقى الناس سبح فى المسكوت عنه من الاشياء حتى يرى كل منهم رايه فيها، فهذا يستحسن شيئا حتى يوجبه على نفسه ، وذاك يستقبح شيئا حتى يحرمه عليها . واعقل الناس فى هذه الاشياء المسكوت عنها من جعل المعروف والمنكر معيارا لها فكل ما قرب من المعروف كان حسنا ويكون وجوبه على حسب درجة قربه من المعروف ، وكلّ ما قرب من المنكر كان مسترذلا .. ويكون حظره على حسب درجة قربه من المنكر . والاصل فى المنكر هو الاذى والعدوان ، وعليه قيس الاصل فى المعروف قياس الضد فالاصل فيه العدل والاحسان

فعلى هذين الاصلين تقوم دعامة النظريات فى التربية وعليهما تشاد الاعمال فيها

واى باحث لا تأخذه هيبة اذا طلع على ما كان لقوم « خديجة » من التعمق فى دقائق هذا الفن من حيث النظر، وعلى بدائع النتائج فيه من حيث العمل ، اى والله ان هؤلاء القوم النازلين فى ذلك البلد الصغير البعيد، واخوانهم الآخرين الضاربين فى تلك الفيافى، يدهش الباحث ما يراه لهم من الباع الطويل فى فن التربية على مقتضى مجتمعهم ذاك . فتراهم مثلا لما كانت السماحة ضرورية ـ ولا سيما لذلك المجتمع ـ جعلوها فى المقام الاول ، ولم يالوا جهدا بطبعها فى النفوس حتى نبغ فيهم اجواد بلغوا بهمتهم فى الجود الكواكب ، وازينت الارض بمناقب هممهم ، وايثار

أخيهم الانسان على أنفسهم ، كما فعل كعب بن مامة الذى آثر رفيقه بمائه ومات هو عطشا

ولما كانت الشجاعة ضربة لازب لكل شخص وكل جماعة فى كل زمان وكل مكان ، تجدهم جعلوها شعار المحامد وتاج المناقب وسيروا فيها ما ضربوه من الامثال قولهم « الشجاع موقى ، والجبان ملقى » وكانوا يتمادحون بالموت قتلا ويتهاجون بالموت على الفراش . ولما بلغ عبد الله بن الزبير ــ وهو ابن أخى خديجة ــ قتل أخيه مصعب خطب فقال « ان يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه ، اننا لا نموت حتفا ولكن قطعا بأطراف الرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ، وان يقتل المصعب فان فى آل الزبير خلفا منه » ذلك لانهم كانوا يكرهون الحياة اذا لم تشرف ، ويرون الحياة الرذيلة معرضة للعدم اكثر من الحياة الشريفة . ولمثل هذا يقول على بن أبى طالب « بقية السيف أنمى عددا ، وأطيب (١) ولدا » وتقول الخنساء وهى احدى الشهيرات فى العرب :

نهين النفوس وبذل النفو س يوم الكريهة أبقى لها

لا يستنكرن أحد اذا قيل له أن الشجاعة ــ وهى السجية التى لا ترقى الامم اذا خلت منها ــ كانت فى العرب من الصفات الشائعة التى لايعتدون بأحد منهم مالم تكن فيه ، وقد سهل على نفوسهم انطباع هذا الخلق فيها لأن أكثر شىء كانوا يتناقلونه هو حديث الشجعان واقدامهم فى الشدائد حتى فضلوا ، والجبناء وأحجامهم فيها حتى رذلوا ، وهنالك من الشعر فى الشجاعة والشجعان ما يفعل فى النفوس فعل السحر فيحولها من الخوف على الحياة والهرب بها الى الخوف على الشرف حتى تهون النفوس فى سبيله كقول عنترة وهو أحد مشهورى شجعانهم :

(١) وفى رواية والجب

بكرت تخـــوفني الحتوف كأنني
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فاجبتهـــا أن المنيـــة منهـــل
لا بد أن أســـقى بكأس المنهـــل

فاقني حيـــاءك لا أبالك واعلمي
اني امرؤ سأموت ان لم اقتـــل .

وقد يظن البعض ان شجاعة العرب وباسهم لم تكن الا فيما بينهم ، ومثل هذا الظن من قلة الاطلاع على جملة أخبارهم فنحن لا نريد ان نأتي بآية على شجاعتهم مما فعل هؤلاء القوم بعد اسلامهم ، فان ذلك مشهور .. ولكن حسبنا ان ندل القارىء على ماكان من باس العرب يوم ذي قار اذ اراد كسرى أن يوقع سوءا ببني بكر بن وائل لسبب لا محل لتفصيله هنا ، فاعد لهم جيشا كبيرا ليهلكهم به ، وبلغهم خبره فاستعدوا له واعانتهم قبائل اخرى فتوافوا بواد اسمه ذو قار ، وكانت الهزيمة من نصيب جيش كسرى ، وقد تبعهم العرب الى داخل البلاد الفارسية . وهي واقعة مشهورة كثرت فيها الاشعار ، وظهر فيها ما للشجاعة من الفضل في كسب الفخار ، وحمي الذمار ، واتقاء العار ، وفي هـذه الواقعة يقول الاعشى أعشى بني بكر :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم
منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا

لقوا ململمة شـــهباء يقـــدمها
للموت لا عاجز منا ولا خـــرف

فرع نمتـــه فروع غـــير ناقصة
مـــوفق حازم في أمره انـــف

فيها فـــوارس محمـــود لقاؤهم
مثل الاســـنة لا ميل ولا كشف

لما رأونا كشـــفنا عن جماجمنـــا
ليعلموا أننـــا بـــكر فينصرفـــوا

قالوا البقية والهنـدى يحصدهم
ولا بقية الا السيف فانكشـفوا
لو أن كل معـد كان شـاركنا
فى يوم ذى قار ما أخطاهم الشرف
لمـا أمالوا الى النشـاب أيديهم
ملنـا ببيض لمثـل الهام تختطف
اذا عطفنا عليهم عطفـة صـبرت
حتى تولت وكاد اليوم ينتصـف
بطـارق وبنى ملك مرازبـة
من الاعاجم فى آذانهـا الشـنف
من كل مرجانة فى البحر أحرزها
تيـارها ووقاها طينها الصـدف
كأنمـا الآل فى حافات جمعهـم
والبيض برق بدا فى عارض بكف
مافى الخدود صدود عن سيوفهم
ولا عن الطعن فى اللبـات منحرف

***

وفى هذه الواقعة يقول العديل بن الفرج العدلى :

ما أوقـد النـاس من نار لمـكرمة
الا اصطلينا وكنـا موقدى النـار
وما يعـدون من يوم سمعت به
للناس أفضـل من يوم بذى قار
جئنا بأسلابهم والخيـل عابسـة
لمـا استلبنا لكسرى كل أسـوار

***

وفيها يقول شاعر آخر من بنى عجل :

ان كنت ساقيـة يوما ذوى كرم
فاسقى الفوارس من ذهل بن شيبانا

واسقى فوارس حاموا عن ذمارهم
واعلى مفـارقهم مسـكا وريحانا

وهى واقعة شهيرة ظهرت فيها الشجاعة العربية اكمل مظهر ، وكان المنذر لهم بنية كسرى وعزمه لقيط الايادى ، اذ كتب الى بنى شيبان يخبرهم بذلك فى شعر مشهور غاية فى البلاغة والتحميس واستثارة العزائم وفيه يقول :

قوموا جميعا على امشاط ارجلكم
ثم افزعوا قد ينال الامن من فزعا
وقـلدوا أمركـم لله دركم
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا ان رخاء العيش سـاعده
ولا اذا عض مكروه به خشـعا
ما زال يجلب هذا الدهر أشـطره
يكون متبعـا طورا ومتبعـا
حتى اسـتمر على شزر مريرته
مستحكم الراى لا قحماولاضرعا(١)
وليس يشـغله مال يثمـره
عنـكم ولا ولد يبغى له الرفعـا

فعلى مثل ما ذكرنا كان نصيب العرب عامة ، وقبيـلة خديجة خاصة ، من الشجاعة التى لا قوام للامم بدونهـا وكانوا لا يعتدون بالجبان ولا يعدونه شيئـا مذكورا . ينبئك بذلك قول أحد شعرائهم :

خرجنا نريد مفـارا لنا ... وفينا زياد أبو صمصمه
فستة رهط به خمسـة ... وخمسـة رهط به أربعه

(١) المريرة طاقة الحبـل ، والحبل الشديد الفتل والشزر الفتل عن اليسار . والمعنى استحكم امره وقويت شكيمته ، والقحم الرجـل الهرم والفرع الضعيف

حكمة العرب ومعارفهم وآدابهم

ثم لم يكن نصيب قوم «خديجة» في فقه النفس والحكمة والمعارف باقل من نصيبهم العظيم في الشجاعة فقد كانوا يتناقلون المعارف ويتدارسونها من غير كتب وكان لهم المام قليل بحركات الكواكب والانواء التي تتبعها . وهو يقتضي شيئا من معرفة الحساب ، وكان لهم معرفة غير قليلة بالطب والصحة الوقائية سواء في طب الانسان أو طب الحيوان. والطب يقتضي أيضا نصيبا من علم الخواص التي اودعها الباري في المعادن والنباتات والحيوانات .. أما معرفتهم بالاخبار أي التاريخ فحدث عنها ولا حرج ، وكانوا يعبرون عن هذا العلم بعلم النسب ، فان علم النسب في الحقيقة لا يهدف الى معرفة نسب الاشخاص والقبائل ، فان هذه معرفة بسيطة لاتستحق أن تسمى علما وانما كان النسابون يعرفون أخبار أولئك الاشخاص ، وأخبار تلك القبائل ، وهذا هو التاريخ . وربما كان السبب في اشتهار هذه المعرفة باسم علم الانساب ان عارفي الاخبار كان اليهم المرجع في معرفة الانساب التي من أهم فوائدها معرفة تفريع القبائل والحاق الفروع بأصولها على شدة البعد بين الاصول وتلك الفروع احيانا . وقد كان منهم متخصصون في هذا العلم يقومون بتدريسه لمن يتتلمذ عليهم . قال رؤبة بن العجاج : قال لي النسابة البكري « يا رؤبة لعلك من قوم أن سكت عنهم لم يسألوني وان حدثتهم لم يفهموني » يعيب بذلك على الذين لا يرغبون في تلقي هذا العلم حق الرغبة . قال رؤبة : فقلت له : اني ارجو ألا أكون كذلك . قال : فما آفة العلم ونكرته وهجنته ؟ قلت : تخبرني قال : آفة العلم النسيان ، ونكرته الكذب ، وهجنته نشره عند غير أهله »

وأما الحكمة والآداب والبيان فقد بلغ فيها هذا الشعب

العربى من التعمق فى حفظها ودراسة الكلم الجوامع فيها مبلغا عظيما ويمكننى أن أقول أنها من أشهر ما اشتهر عنهم

وهل يجد الباحث معنى من المعانى التى يخطر للنفس فيها الاستحسان أو الاستهجان الا ويجد لهم الشافى الوافى من البيان فى تصويره وابرازه بأبدع حلة ، ولا ينبئك ببعض ذلك شيء كالمأثور من كلمهم الجوامع التى سارت مسير الامثال ، وكانت كالدرر الفرائد بين سائر الاقوال

ولا نستطيع أن نأتى هنا بقليل من ذلك الكثير لكيلا نبعد القارىء عن سياق السيرة ، ولكننا نذكر خبرا واحدا يدل على مقدار عناية العرب بتذاكر الحكم والآداب ، وصياغتها بأبدع البيان ، ومقدار ما وسعت منها تلك الافكار . ذكروا أن عمرو بن الظرب العدواني وحممة بن رافع الدوسى اجتمعا عند ملك من ملوك حمير فقال : تساءلا حتى أسمع ما تقولان . فقال عمرو لحممة : أين تحب أن تكون أياديك ؟ قال : عند ذى الرتبة العديم ، وعند ذى الخلة الكريم ، والمعسر العديم ، والمستضعف الحليم . قال : من أحق الناس بالمقت ؟ قال : الفقير المختال ، والضعيف الصوال ، والغنى القوال » . قال : فمن أحق الناس بالمنع ؟ قال : الحريص الكاند ، والمستميد (١) الحاسد ، والملحف الواجد ، قال : من أجدر الناس بالصنيعة ؟ قال : من اذا أعطى شكر ، واذا منع عذر ، واذا مطل صبر ، واذا قدم العهد ذكر . قال : من أكرم الناس عشرة ؟ قال : من اذا قرب منح ، واذا ظلم صفح ، واذا ضويق سمح . قال : من ألأم الناس ؟ قال : من اذا سأل خضع ، واذا سئل منع ، واذا ملك كنع ، ظاهره جشع ، وباطنه طبع (٢) قال : فمن أجل الناس ؟ قال : من عفا اذا

---

(١) المستميد : المستعطى

(٢) كنع : انكمش وتقبض ، والجشع : الطمع والشره .

قدر ، وأجمل اذا انتصر ، ولم تطغه عزة الظفر . قال : فمن أحزم الناس ؟ قال : من أخذ رقاب الاسود بيديه ، وجعل العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيب دبر أذنيه ، قال : فمن أخرق الناس ؟ قال : من ركب الاخطار ، واعتسف العثار ، وأسرع فى البدار ، قبل الاقتدار (١) قال : من أجود الناس ؟ قال : من بذل المجهود ، ولم يأس على المفقود . قال : فمن أبلغ النـــاس ؟ قال : من حلى المعنى العــزيز ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز (٢) قال : من أنعم الناس عيشا ؟ قال : من تحلى بالعفاف ، ورضى بالكفاف ، وتجاوز ما يخاف الى ما لا يخاف . قال : فمن أشــقى الناس ؟ قال : من حسد على النعم وسخط على القسم ، واســتشعر الندم على ما انحتم ، قال : من أغنى الناس ؟ قال من استشعر اليأس ، وأظهر التجمل للناس ، واستكثر قليل النعم ولم يسخط على القسم . قال : فمن أحكم الناس ؟ قال : من صمت فادكر ، ونظر فاعتبر ووعظ فازدجر . قال : من أجهل الناس ؟ قال : من رأى الخرق مغنما ، والتجاوز مغرما

وما ذكرناه من جهة معارف القوم الذين نشأت منهم هذه السيدة كاف فى الدلالة على أنه كان من جملة مايعنون به من التربية تثقيف ناشئتهم بما عندهم من المعارف على الطريقة التى ألفوها وتعودوها فى التعليم ، وهى الطريقة الطبيعية الساذجة الخالية من الاصطلاحات والتعــاريف والتفاصيل التى يحتاج اليها نفر قليلون ، ويستغنى عنها الاخرون . ولكل فرع أهله الذين لهم استعداد لالتقاطه بسهولة ، ولا يكلف البليد فى شىء أن يكد فى تفهمه ذهنه ،

---

(١) يريد بالبدار الســـباق الى معالجة الخصم ، وذاك قبل الاقتدار خرق أى حماقة .

(٢) تطبيق المفصل اصابته وابانة العضو بضربه . والتحزيز مبالغة من الحز فى اللحم وغيره وهو البدء يقطعه

أو يرهق فى حفظه ذاكراته ، أو فى توسيعه مخيلته

ثم قد كان مما عنى به العقلاء من رهط خديجة التربية على العدل . ولقد سبق أن تحدثنا عن ولعهم به ، وحرصهم على حماية المظلوم وانصاف المهضوم

وكذلك ولعوا بامتداح العفاف ، واجلال الطهارة وأهلها .. وكان من أكرم ألقابهم وأجلها لقب الطاهر والطاهر[٥] ، وقد حازت السيدة « خديجة » هذا اللقب باستحقاق ، اذ كان يقال لها « الطاهرة »

فاذا عرف المطالع الكريم أن لهؤلاء القوم حظا كبيرا من هذه الاشياء التى هى أصول الفضائل ، نعنى السماحة والشجاعة والحكمة والآداب والبيان والعدل والتعفف كان جديرا به ألا ينظر الى صغر شأن ذلك المجتمع اذا قورن بالدول الكبرى ، فان الفضل الانسانى الممنوح من يد الفاطر المبدع لا يتوقف عند زخرف البيوت وكثرة الدور فى البلد الواحد ، بل يصل ذلك الفضل بارسال ربانى من يده سبحانه الى الذرات الصغيرة التى فى الادمغة ويختص به سبحانه أفرادا ممن عنوا بتوجيه العقول والقلوب الى صفاء النفس ، وتزكيتها من النقائص ، وتحليتها بالفضائل، ممن لم يجعلوا أكبر همهم تجويد المأكل والملبس والمسكن والفراش . فاذا كثر من هؤلاء الافراد فى أمة ظهرت وان حل الخفاء بهم ، واستوفت وان بخس الوزن لهم ، ولم يكن الافراد الذين تلقوا هدية الفضل الانسانى من الاحسان الربانى قليلين فى قوم خديجة الفاضلة بل كانت كثرتهم خير مقدمة لخير نتيجة هى ظهور ذلك الرسول الكريم الذى كان من أكبر مميزات جماعته الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أولئك الذين وافاهم الوحى بنعتهم بما هم أهله قائلا (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)

الفصل السابع

جمال خديجة

الجمال محبوب

الجمال محبوب لذاته عند الطبع ، ومحبوب لفائدته عند العقل ، ومع كثرة ما ألفت العيون رؤيته ، والآذان سماع أحاديثه ، لا تزال أسراره موضوع التأمل ، ولاتزال دقائق تأثيراته محل الاعجاب ، كيف لا وهو السر الاعظم فى جذب الانسان الى مكانته العليا من الابداع ، والسبب الاكبر فى ابعاد ما بينه وبين الحيوان فى مراقى الوجدان والادراك ، فشرفه مجمع عليه عند بنى آدم بغير خلاف بينهم . وأى قوم حرموه فقد باءوا بحرمان عظيم . ولذلك لم نجد بدا عن ذكر هذه المزية الاخرى لقوم « خديجـة » فانها مزية جديرة بالذكر لا سيما بعد أن اشتهر عند من لم يعرف هؤلاء القوم انهم كانوا لا حظ لهم من الجمال ، ولا ذوق لهم فى الحسن ، ولا نصيب من توجه النفس الى الاحسن

كبرت سبة أن يكون قوم « خديجة »على ما يظن هؤلاء الذين لا تستسيغ أذهانهم أن يكون القوم سكان اقليم حار وذوى شظف من العيش ، ثم يكونوا مع ذلك ذوى خلقة جميلة وصورة بديعة

وكبر منا تقصيرا الا نبين فى هذا الباب ما هو من جملة مناقب هذه السيدة وقومها ، فان استغرب قوم — لم يعيروا أسرار الخليقة نظـرة — تخصيصنا فصـلا لهـذا الموضوع فانهم سيرونه فيما بعد مكينا فى موضعه

ان العرب قد تناسبت قسمات وجوههم ، وتناسقت اجسامهم ، واعتدلت أشكالهم .. بياضهم جميل ، ليس

فيه بهق بعض الاجيال ، وبشرتهم لطيفة ، ليس فيهـــا حلكة بعض الاقوام ، ولعل من فازت من حســانهم بحظ عظيم من الجمال تقل نظائرها فى حسان الاخرين ، وتكون آية المنتهى فى جمال العالمين

والمشهور أن الجمال يختلف فى أذواق الناس ولكل جيل قياس فى الحسن لا يأتى عليه قياس جيل آخر ، ولكن من أمعن فيما يتناقله الكل من صفات الحسن يجد ثمة ناحية جامعة ومقياسا واحدا تتفق معه المقاييس كلها وذلك ان الحسن الذى لا خلاف فيه ، ليس هو بلون الاديم .. وانما هو باعتدال القامة ، واستواء الهامة ، وتناسب أجزاء الوجه ومقاطعه ، وحلاوة المبسم ، وملاحة العينين ، ولطف الحاجبين ، ورقة الشفتين .. ولعل هذه الصفات تكثر فى العرب حتى ندر أن نجد غير موصوف أو موصوفة بالحسن من مشاهيرهم وشهيراتهم . واذا أضــيف الى ما ذكرناه بيــاض الاديم وتشربه بحمرة او صفرة كان ذلك فضلا فى الجمال ، قد يبلغ به منتهى الكمال ، ولم يكن هذا اللون قليلا بين العرب عامة وقوم خديجة خاصة

والعرب لم يكثروا فى كلامهم من شىء بمقدار ما أكثروا من وصف الجمال وقد رأيناهم يستحسنون هذين اللونين كثيرا : البياض المشرب بحمرة أو البياض الضارب الى صفرة .

يقول ذو الرمة أحد شعرائهم :

بيضاء صفراء قد تنازعها لونان من فضة ومن ذهب

وهذا اللون هو لون اللؤلؤ ، وقد جاء فى القرآن المجيد تشبيه حسان الجنة باللؤلؤ المكنون ولا يختلف أحد الى عهدنا هذا ، فى أن هذا اللون الذى تكون صــاحبته أقرب الى الكمال فى الجمال اذا أخذت بحظ من تناسب بقيـــة أعضاء الجسم ، فانه عندما ينطبع فيه الاحمرار لسبب من

الاسباب تكون حمرته الطف من الحمرة الملازمة لبعض البيض ، وعن مثل هذا عبر عدى بن زيد أحد شعراء العرب بقوله :

حمرة خلط صفرة فى بياض مثلما حاك حائك ديباجا

ولكثرة البياض اللطيف فى العرب شبهوه بالصبح واشتقوا من الصبح لونا فقالوا للأبيض صبيح ، واشتقوا من الزهر لونا فقالوا للابيض المشرب بحمرة أزهر ، وتشبيههم بورد الخدود دليل على كثرة هذا اللون فان هذه الحمرة لا تنطبع الا على أديم أبيض ، ورأيناهم يشبهون الاعناق كثيرا بأباريق الفضة كما قالت قريبة بنت حرب أخت أبى سفيان فى أعمامها واخوالها

حب الجمال

وليس بعجيب بعد أن كان الجمال الرائع من جملة خصائص العرب أن نجدهم مغرمى القلوب بمجالى تجلياته ، منصرفى الوجوه الى مشارق أنواره .. ثم لا بدع بعد ذلك اذا وجدنا حب الجمال قد لطف أذواقهم ، وعودهم على الاستحسان ونقلهم من حال الى حال ، الى أن تهيأوا لقبول الدعوة التى ارتقت بهم من هذا الجمال الى أعلى ، ومن هذا الغرام الى ما هو أولى .. نقلتهم الى تصور الجمال الالهى مصدر كل جمال ، ورقت بهم الى عشق الكمال المعنوى الذى هو فوق كل كمال ، فلم يصعب على أولئك الذين شغفهم الجمال المحسوس ، أن يفهموا الجمال المعقول ، وأن يزدادوا تصيبا منه مع نصيبهم من ذاك ، ولم يعز عليهم أن ينتقلوا الى العالم الجديد الذى دعوا اليه ، لانه تبدى لهم أجمل مما كانوا عليه

ونحن اذ نرى للعرب الحظ الاوفر من الشغف بالحسن والاستحسان يزيد قدرهم فى اعتقادنا ، ونرى فى غير تردد

أنهم كانوا لذلك المهد من ارقى الاجيال الراقية على بعدهم عن الزخرف ، وعدم تعلقهم بكل أسباب الحضارة ، ولعلنا اذا بحثنا عن المؤثر الاعظم فى وفرة جمال هذا الجيل نجد ذلك لانهم حرصوا على الاعتدال فى المعاش ، وانتقلوا الى المعتدل من الاقاليم ، وحبب اليهم المعتدل من المهن والاعمال، وأضافوا الى ذلك أنهم لا يتزوجون من غير رؤية غالبا وللانتخاب دخل كبير فى تحسين الجنس وتجويد النسل . وان بدا لاحدهم أن يتزوج بمن سمع بجمالها سماعا ، تجده لا يقصر فى البحث والتدقيق بواسطة من يثق بحسن ذوقهن ، وجودة امعانهن ، والحكاية الآتية تدلنا على مقدار حرصهم على اختيار الجميل وعلى مبلغ تذوق هذا الشعب للجمال :

أراد ملك من ملوكهم (وهو عمرو بن حجر ملك كندة جد امرىء القيس) أن يتزوج ابنة عوف بن محلم (الذى يقال فيه لا حر بوادي عوف لافراط عزه) وكانت ذات جمال فوجه اليها امرأة يقال لها عصام ، لتراها وتتحقق مما بلغه عنها ، فلما رجعت قال لها الملك : ما وراءك يا عصام ؟

قالت : رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعر حالك، ان ارسلته خلته السلاسل ، وان مشطته خلته عناقيد كرم جلاه الوابل ، ومع ذلك حاجبان كأنما خطا بقلم ، أو سودا بحمم ، قد تقوسا على مثل عين العبهرة ، التى لم يزعجها قانص ولم يذعرها قسورة ، بينهما أنف كحد السيف المقصول لم يخنس به قصر ولم يمعن به طول ، حفت به وجنتان كالارجوان ، فى بياض محض كالجمان شق فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم فيه ثنايا غرر ، ذوات أشر يتقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يزين به عقل وافر ، وجواب حاضر، يلتقى بينهما شفتان حمراوان كالورد، تجلبان ريقا كالشهد ، تحت ذاك عنق كابريق الفضة ،

وكب فى صدرها تمثال دمية ، يتصل به عضدان ممتلئان لحما مكتنزان شحما ، تعقد ان شئت منهما الانامل ، نتأ فى ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يحزقان عليها ثيابها – الى أن قالت حين انتهت الى وصف ساقيها – وشبتا بشعر أسود ، كأنه حلق الزمرد ، يحمل ذلك قدمان ، كحذو اللسان – فتبارك الله مع صغرهما ، كيف يطيقان حمل ما فوقهما »

ووصفهم الحسن والجمال فى الشعر مشهور كقول النابغة فى المتجردة زوجة النعمان من قصيدة :

ويزين فوديها اذا حسرت
صافى الغدائر فاحم جعد
فالوجه مثل الصبح مبيض
والفرع مثل الليل مسود
وجبينها صلت وحاجبها (١)
شخت المخط ازج ممتد
وكأنها وسنى اذا نظرت
أو مدنف لما يفق بعد

فهذا مثال من أمثلة الجمال العربى الذى كان لرهط خديجة حظ منه كبير ، ولم يكن حظها هى منه قليلا

(١) الصلت : الواضح والشخت : الضمور عن غير هزال

الفصل الثامن

نعمة الثراء

ثراء خديجة

وكان للسيدة « خديجة » مع ما أتاها الله من الجمال وفضائل النفس حظ من الثراء أيضا ، وثراؤها في حياة أبيها . كانت تاجرة ، ولعل أباها منحها راس المال بادىءبدء

لم يكن اشتغال سيدتنا هذه بالتجارة شيئا يعجب منه في قومها ، فانهم كادوا يكونون كلهم تجارا .. تقضى بذلك طبيعة مقامهم في ذلك البلد وشريعة تربيتهم على طلب المجد واتساع السؤود ، ومنافسة الاقرب والابعد ، ولولا شغفهم بهذا لما سمعنا بأنباء سبقهم في التجارة من بين اخوانهم الآخرين . ولولاه لاستطابوا من العيش ما استطابه ذلك الاعرابي الذى سئل عن طعامهم في البادية فقال لسائله : « بخ بخ عيشنا عيش تعلل جاذبة ، (١) وطعامنا أطيب طعام وأهنؤه وامرؤه : ألقت (٢) والهبيد (٣) والصليب (٤) والعلهز (٥) والذآنين (٦) والعراجين (٧) والضباب (٨) واليرابيع (٩) والقنافذ(١٠) وربما أكلنا والله القد (١١) واشتوينا الجلد ، فما نعلم أحدا أخصب منا عيشا ، ولا أرخى بالا ، ولا أعمر حالا ، أو ما سمعت قول

---

(١) تعلل من العلل وهو الشرب بعد الشرب .
(٢) القت الفصفصة وهى الرطبة من علف الدواب .
(٣) الهبيد الحنظل يكسر ويستخرج حبه وينقع لتذهب مرارته ويتخذ منه طبيخ يؤكل عند الضرورة (٤) الصليب يستخرجونه من العظام بعد أخذ اللحم منها . (٥) العلهز قراد كبير ونبات ينبت في بلاد بنى سليم وطعام يتخذ في المجاعة من الوبر والدم
(٦) الذآنين جمع ذؤنون نبت طويل ضعيف له رأس مدور .
(٧) العراجين جمع عرجون ، العود من النخل .
(٨ ـ ٩ ـ ١٠) الضباب ، الجرابيع والقنافذ حيوانات معروفة .
(١١) القد جلد السخلة

شاعر وكان والله بصيرا برقيق العيش ولذيذه :

اذا ما أصبنا كل يوم مذيقة (١)
وخمس تميرات صغار كوانز
فنحن ملوك الناس خصبا ونعمة
ونحن اسود الناس عند الهزاهز
وكم متمن عيشنا لا يناله
ولو ناله أضحى به حق فائز

فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة ، ورزق من السعة ، واياه نسأل تمام النعمة »

هذا ما استطابه الاعرابى وحمد الله عليه هذا الحمد . وما الاعراب الا بشر قد يستطيب غيرهم من البشر ما يستطيبون اذا خلصوا الى مثل معيشتهم ومارسوها لكن من الناس من لا يطلبون فى الحقيقة ما يقيم مادة البدن فقط كما تطلبه سائر الحيوانات ، بل يتسابقون الى ما به الغبطة من المقتنيات والذخائر . ويتبارون فى ما به التمايز من المستحسنات والبدائع ، وبمثل هؤلاء يزيد الله الانسان بسطة من المعارف وقوة فى المدارك

وقريش ، كما عرف القارىء ،كانوا ممن أعدهم الله لعمل عظيم فى الارض ولا يتم ذلك بحسب سنته سبحانه ما لم يكن فى سابق تربيتهم وطرق حياتهم ما يلائم الطريق الذى سيستأنفونه وما أمامهم من المغامرة فى السيادة على شعوب العالم بقدر ما يستطيعون . فلم يكن لائقا بمن هم عتيدون لمثل ذلك أن يقبعوا فى بلدهم ، ولا يعرفوا العالم ، ولا تميل نفوسهم الى خيرات السماء والارض الفائضة فى ملك الله الواسع . بل اللائق بهؤلاء ان يكون كل واحد منهم متمثلا بقول ذلك الشاعر من ابناء ملوك العرب « امرؤ القيس » :

---

(١) المذيقة تصغير مذقة ، وهى شربة من اللبن الممزوج بماء كثير

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ــ ولم أطلب ــ قليل من المال
ولكنما أسعى لادنى معيشة وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وحقا كانت حال القرشيين ناطقة بمثل هذا الكلام ، وكل منهم له في المجد أرب ، فلا بدع اذا انصرف الغالبية الى تحصيل المال ، فانه أعظم وسيلة لتحقيق هذا الهدف .

وقد نجح فيه منهم كثيرون ونفعوا بالغنى قومهم عند الشدائد ، منهم عبدالله بن جدعان الشهير بجفنته التي كان يقدمها للفقراء والمساكين من زوار مكة وأهلها ، وقد أمد قومه بالسلاح في حرب حاربوها ، وسلح مائة كمى من غير قومه ممن حارب معهم . وفي هذه الحرب قتل احد اخوة السيدة «خديجة» العوام أبو الزبير (١) ومنهم أمية بن خلف بن وهب وابنه صفوان الذى أثر عن النبى (ص) أنه قال فيه : « أن صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه » أى بلغ ماله القناطير (٢) وكثيرون غير هؤلاء

فيالله ما أشبه قريشا الضاربين في أغوار رمال العرب وانجادها لنقل المتاع من هذه البرية واليها على مراكبهم سفن البر ، بالفينيقيين الضاربين في أكباد تلك البلاد وأطرافها لنقل البضائع من هذا الثغر الى ذاك على مراكبهم سفن البحر . فلئن كان لابناء تلك السواحل رحلتا شتاء وصيف بين زئير الامواج ، ومعاركة الامواه ، فلأبناء هذه البرارى أيضا رحلتا شتاء وصيف بين عواء السباع ، ومعالجة الرمال

---

(١) تحاربت في هذه الحرب ، قريش وهوازن ، وكان عمر النبى «ص» فيها اربعة عشر عاما ، وحضرها مع أعمامه يهيىء لهم النبل ، وعبد الله بن جدعان سرى شهير ومثر كبير وهو من فخذ بنى جمح

(٢) امية وهو من فخذ بنى جمح أيضا وقد قتل في وقعة بدر ، وكان مع أعداء النبى «ص» اما ابنه صفوان فأسلم بعد فتح مكة ، وكان من المؤلفة قلوبهم .

لعمر الحق قد أدرك القوم أن الخير كل الخير لأنفسهم ولجيرانهم ، أن يخفوا للتجارة لانها في الامم أقوى الاسباب الداعية الى القوة والرفعة ، المبعدة عن الحياة الشقية البائسة ، فنشطوا في الاعمال التجارية غير كسالى ، فكان لذلك ربحهم منها عظيما ومن ملكة الاختلاط بالاقوام في ذلك العصر السحيق والمكان البعيد . وكان بلدهم — على هذا البعد عن العمران — وسطا صالحا للتجارة في تلك البرية عن طريق الحج الذي كانت تقوم به العرب الى البيت المكرم القائم فيها ، وجدير ببلدة يحج اليها العرب ذلك الحج أن تكون للامن دارا ، وانما تزدهر التجارة في رياض الامن

أسواق مؤقتة

وكانوا يقيمون من حولها أسواقا مؤقتة كل عام قبيل أيام الحج ويفدون اليها ليبيعوا ويشتروا . أشهرها سوق عكاظ التي كانت تعقد في أول يوم من ذي القعدة و « عكاظ » بين مكة والطائف . ومن أسواقهم هذه «ذو المجاز » وهو عند عرفات و « مجنة » وهي موضع جنوب مكة و « بدر » وهي بين مكة والمدينة

ولقد كان لسوق عكاظ من خطير الشأن أن النعمان ابن المنذر ملك الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعده عن مكة كان يبعث كل عام الى سوق عكاظ جمالا محملة سلعا وطيوبا لتباع في هذه السوق ، ويشترى له بثمنها من أدم الطائف (١) ما يحتاج اليه ولم يكن يرسلها في هذا الطريق البعيد الذي تمر فيه على قبائل شتى حتى يجيرها له شريف من شرفاء العرب

وهذا يدلنا على أن تلك البلاد لم تكن تأتي بالحاصلات

(١) الادم بضمتين وفتحتين الجلود المدبوغة والواحد أديم

من البلاد الاخرى فقط ـ بواسطة التجارة ـ بل كانت تخرج الى غيرها حاصلاتها أيضا . ومع أن الشام مشهورة بأعنابها وفواكهها كان تجار مكة يأخذون اليها من زبيب الطائف الذي أدهش حسنه وكثرته سليمان بن عبد الملك لما رأى بيادره فقال: لله در قيس في أي عش أودع فراخه: يريد بقيس ثقيفا فكذلك كان اسمه ، وحسبك أن النعمان بن المنذر كان يرسل يأخذ من أدمها

فتجار مكة لم يكونوا يذهبون فارغي الاحمال الى الشام ، والى غيرها أحيانا ، بل كانوا يذهبون ببضاعة حجازية مما تخرج تلك الارض من نبات ومعدن ويرجعون ببضاعة شامية أو غيرها مما تخرج الارض وتصنع الايدى. وآخرون مقيمون غير ظاعنين ليقيموا السوق الدائمة في تلك البلدة « أم القرى »

***

ولعله يهم القارىء أن يعلم ماذا كانت تخرج تلك الديار الى غيرها من الاشياء فانه كلما تصورها غير زراعية وغير صناعية يضيق ذهنه عن معرفة ما يصلح أن يخرج منها ، وله العذر في ذلك. أما نحن فنذهب حيرته ببيان وجيز لا يسعنا أكثر منه لئلا ينقطع الحديث فنقول ان تلك البلاد في ذاتها رأس مال طبيعي كسائر البلاد .. ذلك بما تشتمل عليه من معادن ونباتات برية يصلح بعضها للصباغة وبعضها للدباغة ، وبعضها للطب ، وبعضها للطيوب ، وبعضها للتنظيف .. فاذا أضفت الى ما كانوا يجففونه من ألبان الحيوانات وما يستخرجونه منها من الزبد ومن أصوافها وأوبارها وجلودها وما كانوا يجففون من التمر والزبيب وغيرها تجد بضاعة غير يسيرة يحمل مثلها الى اطراف بلاد الشام مما هو الى الحجاز أقرب بل ربما راج بعضه في العواصم

نحن اليوم لانتصور مجتمعا حضريا الا بأن يكون فيه أمير مسيطر وجند له حافظون ، وزراع وصناع وتجار للمعاش ضامنون ، وقد رأى القارىء أن مجتمع «خديجة» قام بغير مسيطر وبدون جند له .. فعسى الا يقيس على استغنائه عن سيطرة الامير استغناءه عن الزراعه والصناعة والتجارة . كلا فان هذه الثلاث لاقوام لقوم بدونها. ونحن اذا ذكرنا ما كان من نصيب قوم « خديجة » منها لا نقصد به عد مفاخر لهم الا من جهة أنهم تغلبوا بمداركهم وهممهم على كل ما كان يحول بينهم وبين السعى الى ادراك شأو الامم والابتعاد عن البداوة ، بعد أن أوشك جوار البادية أن يجذبهم اليها كما جذب اخوانهم الآخرين

الصناعة والتجارة

فهم تحضروا فى ذلك البلد بين أهل البادية ، وفى عزلة عن العمران وأعطوا الحضارة حقها على صعوبة الوفاء لها بهذا الحق . وتراهم مع هذا لم يخالفوا سنن العرب فيما يأنفون منه ويترفعون عنه ، فأقاموا ما احتاجوا اليه من الصناعة فى بلدهم ولكن على أيدى عبيــدهم ، لان العرب كانت تأنف من بعض أنواع الصناعة ، وكذلك استصلحوا ما احتاجوا اليه من الاراضى الزراعية ، على أيدى عبيدهم . ولم تكن الاراضى الزراعية كثيرة فى بلدهم ولكن لم يكن خاليا منها البتة ، فهناك أودية يجود فيها الزرع والغرس وتجرى فيها العيون ، وما الطائف عنهم ببعيــد وهو أبو الزراعة

أما التجارة فلم تكن العرب تأنف منهــا ، لذلك باشرها القوم بأنفسهم كما باشر بعضهم بعض الصناعات التى ماكانوا يأنفون منها . فمنهم من كان يبيع اللباس . ومنهم من كان يبيع الادهان . ومنهم من يبيع اللحم . ومنهم من يبيع الاداة

والماعون والسلاح . ومنهم من يبيع الرقيق خاصة . وبالجملة كان فيهم باعة لكل الاشياء التى تدور عليها حاجة الانسان المتحضر من صنوف الاكسية المعتادة . وضروب الاطعمة والاشربة المعهودة . وصنوف الماعون والاداة اللازمة . والعقاقير المعروفة والحيوانات المتداولة والأسلحة الشائعة. ولم تكن سوقهم تلك خالية من السماسرة ، ويقال أن عمر ابن الخطاب الخليفة الثانى الشهير كان بزازا ويقال انه كان سمسارا كما أن أبا بكر الخليفة الأول كان بزازا (رضى الله عنهما) .

ومهما كان ذاك المجتمع أقل تشبثا بالزخرف وأبعد عن التسابق الى المتاع الزائد عن الحاجة نرى أن حاجاته التى يستلزمها عملهم كتجار لم تكن قليلة ، ونرى انها وحدها كافية لان يكسب بعضهم بواسطتها كثيرا من المال ، فالتجارة ولا شك السبب الاول فى ثراء قريش وكثرة الاثرياء منهم لأننا لم نعهد لهم الى ذلك العهد وجها من وجوه الربح المال أعظم منها

وأصناف الاموال التى كان الثراء بها عندهم هى الذهب والفضة والابل والرقيق ، والاراضى للزرع والغرس ، والاراضى لاستخراج المعادن

أما الذهب والفضة فهما الواسطة الاولى فى تبادل العروض والاعيان . ومن مطالعة اخبار القوم يظهر أنه كان لديهم منها شىء كثير . من شواهد ذلك قول النبى (ص) « أن صفوان بن أمية قنطر فى الجاهلية وقنطر أبوه » ومن شواهد ذلك أنه بعد أن ظهر الاسلام وانقسموا قسمين أحدهما مع النبى (ص) فى دار هجرته (المدينة) والآخر عدو له فى وطنه « مكة » أدت العداوة بينهما الى اشتعال حرب بين الفريقين فى الموقع المسمى ببدر بين مكة والمدينة فكان الظفر لأصحاب النبى (ص) ووقع فى أيديهم من

عشيرتهم سبعون أسيرا افتدوا انفسهم ووزنوا فى فـدية الواحد أربعة آلاف درهم فتكون الجملة نحو مائتين وثمانين الف درهم أى نحو عشرين قنطارا مصريا من الفضة ولم يحدث فى ذلك البلد الصغير أقل ضيق من هذا المقدارالذى وزن اهل كل أسير منه ما عليه . وما هو بالمقدار الـكبير ولكنه يدل بالجملة على وفرة هذه الدراهم وتيسرها عند القوم ، ومنها ما ورد من أنهم انفقوا على حرب النبى فى « أحد » ربح العير التى جاء بها أبو سفيان من الشام وقدره خمسون الف دينار

وكانت النقود التى يتداولونها من ضرب الروم غالبـا وبعضها كسروى ،ولكن لم يكونوا يتداولونها الا بالوزن . ولعل ذلك لعدم اتقان ضربها على وتيرة واحدة ، وقد ظلت النقود الاجنبية الى أيام عبـــد الملك بن مروان فهو الذى استحدث النقود المكتوب عليها بالعربية

وأما الابل فهى أوفر اصناف الثروة ، والابل مال كثير البركة لصاحبه فالقليل منها فيه الغنى والفناء ، والنعمة والهناء .. من درها الغذاء ، ومن أوبارها الكساء ، ومن جلودها الماعون والحذاء ، ومن بعرها الوقود للطبخ وكشف الظلماء .. وظهورها مراكب للظعن والحمـل والنجاء (١) وبطونها اعظم بها واسطة للنماء . فبعيشك أيها القارىء فى أى مورد من موارد الثروة المعاصرة يجد أحدنا مثل هذه البركة ، التى لاتحتاج إلى شىء عظيم من الحركة ؟

وأما الرقيق فقد كان فى ذلك العهد يعد مالا فى جميـع جهات الأرض وكان هؤلاء القوم من أغنى الناس فى الرقيق واذا صرفنا النظر عن استهجان هذه العادة نرى أن لاشىء انفع من عمل «الآلة» المتحركة بنفسها ، النامية بطبيعتها ، المدركة بعقلها

---

(١) النجاء : الهرب

وأما الاراضي للزرع والغرس فكان بين العــــرب أفراد يملكون منها كثيرا ، ومن أثرياء قريش من كان يملك أراضي في الطائف كعتبة وشـــيبة ابني ربيعة « من فخذ بني عبد شمس » وغيرهما

وكان تقدير القوم للزرع والضرع أعظم من تقـديرهم للذهب والفضة ، فقد سئل بعضهم عن الذهب والفضة فقال « حجران يصطكان ان أقبلت عليهما نفدا ، وان تركتهما لم يزيدا ، ان أفضل المال برة سمراء في تربة غبراء ، أو عين خرارة ، في أرض خوارة ، أشار بهذه الكلمات القليلة الى أن الموجب لنماء الثروة هو العمل في استخراج الخيرات الطبيعية من الارض التي هي أول رأس مال . أما الذهب والفضة المتداولان فواسطة لتنظيم حركات دولاب الاعمال فقط . وهذا هو الاساس الصحيح لاقتصاد الامم

وأما الاراضي الغنية بالمعادن ، فالظاهر أن بعضها كان مشاعا وبعضها كان مملوكا . أما كون بعضها مشاعا فنأخذه من عادة العرب في جاهليتهم من أنهم لم يكونوا خاضعين لمثل سنن البلاد التي فيها ملوك . والمعادن انما يجعل لها حمى وحرما الملوك الذين يعدونها من جملة الاموال العامة التي هي حق للخزانة العامة ، خزانة المملكة . وأما كون بعضها كان مملوكا فنستخلصه مما قرأناه عن ملك بعضهم لبعضـها كالحجاج بن علاط السلمي (١) الذي كان يملك معادن بني سليم . وكأنهم لشيوع ملك بعض الناس لبعض المعادن كان من الناس من يطلب من النبي بعد الفتوح أن يقطعه

---

(١) الحجاج بن علاط ليس بقرشي . بل هو من بني سليم ، ولكنه كان متزوجا من قريش او من بني عبد الدار رهط خديجة ، وكانت امواله تستثمر في مكة ، وكان مكثرا من المال ، أسلم يوم فتح خيبر ، ثم جاء الى النبي «ص» فقال له «ان لي ذهبا عند امرأتي في مكة وان تعلم هي باسلامي فلا مال لي ، فائذن لي لاسرع السير واخبر اخبارا اذا قدمت ادرا بها من مالي ونفسي » فأذن له النبي « ص » وقدم مكة واخذ امواله بحيلة

شيئا منها فقدطلب بلال بن الحارث أن يقطعه معادن القبلية (منسوبة الى قبل بفتحتين) وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة أيام فأقطعه اياها واقطعه جبل قدس (١) للزرع

هذه هي موارد الثروة التي كان بها ثراء هؤلاء القوم ، يضاف اليها العروض والأمتعة التى كانت تتداول فى التجارة ، والى مثلها يئول اليوم كل ثراء ، فان امتلاك الارض والمعادن لا يزال أيضا ينبوعا فياضا للثروة .. واستخدام الفعلة بأجر بخس نوع من الاستعباد والاسترقاق . والنقود لا تزال كثرتها وقلتها أيضا معيارا عظيما لثروة الامم . وعلى مقدار ما تقدم كله يكون محور التداول للعروض والامتعة والاثاث والرياش

وقد كان من لايستطيع ان يباشر التجارة بنفسه أو السفر من أجلها يعطي من ماله الى آخر على أن يتجر به ويكون الربح بينهما ، أو يعطيه بالربا ـ وكان شائعا بينهم ـ أو يستأجر آخر ليقوم له بتجارته ، والامانة هي الغالبة فلم يكن بأس على المال بتسليمه الى من يتجر به بالمؤاجرة أو المضاربة فلذلك لم تصعب التجارة على السيدة « خديجة » التي كان لها ما لنساء قومها من الاستقلال فى أموالهن . ولم يكن لابيها ولا اخوتها سلطان على ذلك المال الذى كانت تبعث به للتجارة مع ذوى الأمانة ذاهبا وآيبا

وفى ايثار هذه السيدة ارسال أموالها فى التجارة على الاتجار بالنقود فى مكة كما يفعل المرابون دلالة على بعد نظرها وعلو همتها وعظيم عطفها وحنانها على وطنها فان الأوطان تسمو باقدام أرباب أموالها على نشر اسمها فى العالم بالبيع والشراء واظهار صنوف الثراء . ولا يكون لها مثل ذلك بشيوع المتاجرة بالنقود

(١) جبل قدس معروف فى جوار المدينه

الفصل التاسع

زواجها قبل النبي

قصة الزواج

تزوجت خديجة قبل النبى (صلى الله عليه وسلم) مرتين تزوجت أبا هالة النباش بن زرارة وتزوجت عتيق بن عابد المخزومى . وكان الزواج المرضى فى الجاهلية كالزواج فى الاسلام أى ان الرجل يخطب الى الرجل بنته أو من له عليها ولاية ويقدم صداقها فيزوجه . وأما مايذكر من أنواع أنكحة الجاهلية الأخرى فهو من باب السفاح لامن باب الزواج المرضى . ولم يكن السفاح والمخادنة من فعل الشرائف والكرائم ، وانما يفعل ذلك الاماء والحقائر

وولدت هذه السيدة ولدا من أبى هالة وسمته «هندا» على عادة العرب ، اذ كانوا يلقبون الذكور أحيانا بأسماء الاناث ، فهند هذا هو ربيب النبى (صلى الله عليه وسلم) أخو فاطمة لأمها عليهما السلام ، وقد عاش وأدرك الاسلام وأسلم . روى عنه ابن أخته الحسن بن على حديث وصف النبى (صلى الله عليه وسلم) المشهور فى الشمائل وكان هند وصافا ، وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبى (صلى الله عليه وسلم) وقد قتل هند مع على يوم الجمل

سيعجب القارىء من زيادة تعريفنا لابنها هذا ونحن لا نكتمه السبب ، وذلك اننا نحب الا ندع شيئا مما يتعلق بسيرة هذه السيدة مغفلا ومهملا ، ولاسيما بعد ان رأينا أكثر الذين كتبوا فى سيرتها لم يتعرضوا لذكر ولدها هذا فكاد يضيع ويخفى الا على المنقبين فى بطون الاسفار الواسعة وعذرهم فى ذلك أنهم انما يتعرضون لسيرة هذه الفاضلة

على الغالب منذ تشرفها بزواج النبى (صلى الله عليه وسلم)
وان لنا ـ والحق يقال ـ حقا على هؤلاء الناس الذين يريدون أن يعرفونا بسيرة أحد الاشخاص ، فيمسكون أنفسنا بالشىء من أخباره ثم يقطعونه ويجذبونها الى شىء آخر
على أننى لا أنكر أنه اذا سطعت الشمس لايبقى لبصيص السراج مكان ، فمن ذا الذى يعلم أن هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى « محمد » صلى الله عليه وسلم وولدت منه « فاطمة الزهراء » أم الحسنين ثم يرجع باحثا عن ابنها ذاك من زوجها الأول أبى هالة ؟
لعمرك اذا وصلت بسيرتها الى هذا المقام ، تضاءلت أمام نظرك كل ما تسمع عن ايامها الماضية واستشرفت نفسك الى الاطلاع على هذا الشأن الجديد الذى سيكون لهذه السيدة مع هذا الزوج الكريم الذى رن الكون كله باسمه الشريف
فمن هنا بدء الحياة العليا لهذه السيدة ، ومن هنا بدء خلود اسمها فى لوح الوجود ، وبدء اشراق مواهبها فى سماء السعود ، أمامها الآن الشمس بلا حاجز ، فليستمد منه جوهرها ، وليفض نورا وسناء ، وليتبارك كمالا وبهاء ..

الفصل العاشر

محمد عليه الصلاة والسلام
قبل زواج خديجة

وإذا العنـــاية صاحبت مرءا فلا
تكثر سؤالك فيه كيف ولم وما
ودع التردد ان أتاك حديثـــــه
مهما حوى مهما نمـــا مهما سما

لا تسأل كيف أبدع الانسان ، من أبدع الكواكب ، من خلق موادها ، وقدر مدارات لحركاتها ، ونظما لتقابلها ، وأنشــأ منهن المقسمات ليلنــا ونهارنا ، المدبرات صيفنا وشتاءنا ، الناظمات فى احشائها شملنا ، المادات بنسائمهن نسماتنا ، وبأرواحهن كياننا ، ولا تسأل لم خلق لنا الأرض جميعا نشرح احشاءها ، ونقطع أوصـــالها ، ونستخرج أفلاذها ، قد حصرناها على عظمها فى يدنا ، وحشرنا كل ما فيها فى ذرات صغيرة من دماغنـــا ، ان شئنا نرفع من شــــأنها بما نركب من أجزائها ، فيأتى منها من البـــدائع ما يدهش ألبابنا ، ويسحر أبصارنا ، وان شئنا لم نعبأ بها ، واستشرفت نفوسنا الى غيرها ، فاطلعنا الى مصادر الارواح ومواردها ، ومشارق الاسرار ومغاربها ، وارتفعنا الى ينابيع الاكوان ومظاهرها ، وتلمسنا ثمة حياة لا نحتاج فيها الى ماء الارض وهوائها ، وترابها ونارها

ولا تسأل كيف تقاربت صورنا معشر الانس وتباعدت حقائقنا ، ولم طالت آمالنا وأعمالنا ، وقصرت آجالنـــــا وأعمارنا ، ولم جشعت نفوسنا بتكثير الصور ثم شغفت كل نفس بأنواع منهـــا ، واختلفنـــا فى تمييزها وترجيــح بعضها على بعض ، وتدابرنا فى مناهج طلابها ، وتقاطعنا فى سبيل اكتسابها ، ولم هذا البون فى انصبتنا ، والفرق فى

مرامينا ، والبعد فى مدارجنا ، والغبن فى معارجنا ؟

ولماذا منا اناس مع الكواكب مداركهم سابحة فى افلاك الحقائق ، وبروج الرقائق والدقائق ، ومع الانوار سيرهم منتشرة فى سابق الدهور ولاحقها ، وبادى الشعور وحاضرها ، وآخرون مع الديدان مشاعرهم دابة بين اوراق الآجام واحطابها ، أو تحت دخان القفار ونقعها ، ومع العصف صورهم منطوية فى احشاء الاواكل ، ومندرجة فى الاواخر مع اخوانهم الاوائل ؟

لا تسأل عن هذا كله ان كانت نفسك قد وقفت عند مطمأنها من معرفة الأكوان والموجودات ، البادى خط جلالها وجمالها على لوح الآيات البينات ، من الاشكال والتنوعات ، (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الأرض اذا انتم تخرجون)

اذا وقفت نفسك عند هذا المطمأن من المعرفة فلعلها تصل بك الى معرفة ان ذا الحياة الأزلية ذو حكمة ليس فى وسع استعدادنا أن نحيط بأسرارها خبرا مهما حامت حولها آمال مداركنا ، ومهما طافت فى مجال قدسها صوافى سرائرنا .. فأخلق بأحدنا أن يتذكر فى هذه المسابح الفكرية عجز عقولنا عن أن تصل بنا الى ما دون هذا السر

الاعظم ، ووقوعها بنا فى كثير من اشراك الاوهام فى الموجودات التى هى تحت حسنا ، وفى جوار أجسامنا ونفوسنا

وعسى أن ترقى بك هذه المعرفة الى التسليم بأن هذا الحى الأزلى الحكيم ذو عناية ربانية لايحاسب على مايختص بها ممن يشاء فله الأمر كله فيما يبدىء ويصور . وله الحكمة فيما ينوع ويميز .. منه كل شىء واليه المآب

وان كنت فى ريب من الحكمة الأزلية والعناية السرمدية فدع نفسك واقفة ماشاءت فى ظلمة الالحاد ، أو دائرة فى سجن الشك ، أو طائرة فى جو الوهم لا قرار لها .. وانما تحكى هنا للذين هم بربهم يؤمنون

الوليد المبارك

سبق فى العناية الأزلية أن تكون هداية شعوب كثيرة الى أقوم سبل الحياة على يد رجل من العرب يرتفع به اسمهم فى العالمين . وكان هذا الشرف الذى أعده الله للعرب ، أعظم نصيب لعبد المطلب الذى أخرج الله انسان هذه الهداية من أولاده

كان عبد المطلب (١) من كبار أشراف قريش ورزق عشرة أولاد من الذكور ، وكان ابنه عبدالله أحبهم اليه ، فزوجه شريفة من شرائف قريش من بنى زهرة تدعى آمنة فحملت منه ، وقبل أن تضع حملها توفى ، فلما وضعت كفل وليدها

(١) اسم عبد المطلب شيبة ولتسميته بعبد المطلب حكاية ، وهى ان اباه هاشما كان قد تزوج امه من بنى النجار فى يثرب «المدينة» فلما ولدته تركه عندها حتى كبر ، وكان هاشم تاجرا فخرج بتجارة الى الشام فمات فى « غزة » فذهب اخوه المطلب بن عبد مناف ليأتى بابن اخيه ، فأبت والدته ان تعطيه اياه حتى أقنعها بأن اقامته فى بلدته وبين قومه وعشيرته خير له ، ولما جاء به كان مردفه خلفه على بعير فظنت قريش انه عبد ابتاعه ، فقال لها عبد المطلب ، وقال لهم المطلب ويحكم انما هو ابن أخى هاشم قدمت به من المدينة ، ولكن ذاعت كلمة عبد المطلب فاشتهر بها وصارت كأنها علم له

جده وكان هذا الوليد المبارك « محمداً » صاحب القرآن

فما أسعدك ياعبدالمطلب ، أكنت تدرى وانت على أبواب ابرهة الحبشي تطلب منه رد ذلك القليل من الابل الذى لك مما استاقه من ابل مكة أن سيولد لك فى هذا العام حفيد تنثنى أعناق الملوك فى الاجيال المقبلة خاضعة لذكره ؟

أكنت تفكر اذ قصارى أملك الاحتفاظ بمكانتك بين قومك المنقطعين فى تلك البرية ان اسمك ستردده المحافل فى الامصار النائية والشعوب المختلفة على مدى عصور كثيرة كلما ذكر نسب حفيدك العظيم الذى هيأه الله لرسالة يتبعه من أجلها العالم ، ويبقى ذكره فيهم الى الابد ؟

أخطر على قلبك أن بلدك المقدس الذى لم يكن يحج اليه الا العرب ستحج اليه كل شعوب الارض لما جاءهم به حفيدك من الهداية ؟

أجاء فى خلدك أن كنتك آمنة الزهرية انما ولدت من يشرف الله به قومك ويجمع به كلمتهم ، ويعلى سلطانهم وينشر لغتهم ، ويقيم لهم مجدا مع الدهر مذكورا ، وفى كتاب العالم مسطورا ؟

هل كنت ملهما اذ سميته محمدا ؟ وكنت على رجاء كبير بأن يقيم له العالمون تحميدا لا ينقطع ، وتمجيدا لا يزول ؟

أعرفت أنك بحفظك هذا اليتيم وكفالتك اياه وعنايتك به انما كنت تحفظ للعالم كله التحفة التى آتاهم الله من كرمه ، والوديعة القدسية التى اختص الله بيتك لظهورها ، وقومك لانتشار مبدأ نورها ؟

فأنت بما أوتيت من هذه السعادة الخالدة جدير أيها المختص بعناية الحى الازلى .. فليدم ذكرك جمالا للمحافل واسمك ساميا مع اسم حفيدك نبى الشعوب وبركة العالم

كانت ولادة محمد فى القرن السادس من ميلاد المسيح عليهما الصلاة والسلام ، أى حوالى سنة سبعين وخمسمائة

منه ، وحوالى السنة الثامنة والاربعين من ملك كسرى أنوشروان ولم يكن قومه يعرفون سنى الامم وتواريخها ولا سنى انفسهم ، وانما كانوا يحفظون الاعمار ويؤقتون آجال الاشياء بالوقائع الشهيرة والحوادث العظيمة ، كما هو شأن الاميين الى عهدنا

ولد عام الفيل وهى سنة اشتهرت بهذا الاسم لوقوع حادثة فيها ، مشهورة عندهم ، تدور حول حرن فيل القائد النجاشي وامتناعه عن السير نحو مكة .. لذلك سميت بهذا الاسم .. وحادثة الفيل يصح أن نقول انها من التاريخ المقدس عند المسلمين ، اذ ذكرت فى القرآن .. ولكن على اسلوبه فى القصص التى تذكر لاجل العبرة فقط لا ، على أسلوب المؤرخين ونقلة الاخبار

وقد أعطى لمرضعة ، على عادة قريش فى اعطائهم الاولاد للمراضع ، من القبائل النازلة قرب مكة ابتغاء أن تتربى أجسامهم فى البادية حيث الارض النظيفة قد كسيت من الازاهر أبدع النمارق الطبيعية ، والنسائم تحمل عبيرها الى النفوس رائحة وغادية

التحفة السنية

اذا بزغ النهار أرسل الى أفئدة أهل النشاط والهمة روحا مبشرا بطيب عقبى العمل ، وسوء منقلب الكسل ، وكان بينه وبين سكان البرارى وساسة الانعام عهدا الا يقبل بطلعته الباسمة الا وهم مستقبلوه بالتحيات الطيبات من مباسم هممهم ، وثغور اجتهادهم ، ورافعون اليه آيات الشكر على ماله من الايادى البيضاء فى اخضرار عيشهم ، وابيضاض وجوه آمالهم

بزغ الفجر يوما على نسمتين فى أباطح تهامة قد أسفر عليهما البشر ونفذت الغبطة من أعماق جوانحهما الى أسارير وجهيهما ، ولم يكن ذلك الأنس والبشر لما حولهما من مجالى

عرائس الطبيعة لأن السماء كانت شحيحة عليهم تلك السنة فلم تترع حياضهم ، ولم تزدهر رياضهم ــ ولو لم يصن الوادى لهم القليل مما أغيثوا به مرة لقتلهم الظمأ ــ ولا لما حولهما من وافر الرزق وسابغ النعم ، لأنهما لم يكونا يملكان الا غنيمات قد جارت عليها السنة ، وقتلها الجهد والجدب .. ولكن كان ذلك السرور لنعمة جديدة حلت بهما فملأتهما فرحا ، وأشبعتهما ابتهاجا ، ولم يكونا يكفان عن هذا الحديث الذى كانا يتغذيان به صباح مساء ، ويجددان به شكرا على هذه النعماء ، وهذا ماكانا يتحدثان به :

ــ حقا يا حليمة انك قد جئتنا بتحفة سنية ونسمة مباركة

ــ أى والله ياحارث وانظر ما أجمله ، أنظر الى هذه الاشفار الهدب ، انظر الى هذه العيون الدعج ، انظر الى هذا الجبين الأزهر ، انظر ما أبهى انعكاس هذا الضياء المقبل من الشرق على مرآة هذا الجبين

كان هذا الحديث يجرى بين امرأة وزوجها من قبيلة بنى سعد صبيحة يوم ، وكانا قبله فى مكة ، وكانت هذه المرأة هى التى جاءت بحفيد عبد المطلب لترضعه وقد تحدثت بنفسها كيف جاءت به ، وكيف رأت من بركته ، قالت :

ــ خرجت مع زوجى وابن لى صغير على أتان لى قمراء(١) معنا شارف (٢) لنا والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، مافى ثديى

(١) القمرة بالضم لون الى الخضرة او بياض فيه كدرة . حمار اقمر وأتان قمراء

(٢) الشارف الناقة المسنة

ما يغنيه ، ومافى شارفنا ما يغذيه ، ولكنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على اتانى تلك فلقد أذمت (١) بالركب ضعفا وعجفا حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها انه يتيم ، وذلك اننا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى فكنا تقول يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا غيرى ، فلما هممنا بالانطلاق قلت لصاحبى : « والله انى لأكره أن أرجع بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لاذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه » قال: «لا عليك أن تفعلى عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة» قالت: « فذهبت اليه فأخذته ، وما حملنى على اخذه الا انى لم أجد غيره » قالت : « فلما اخذته رجعت به الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجى الى شارفنا تلك ، فاذا بها حافل (٢) فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة. قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا تعلمين والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة ، قالت : فقلت والله انى لارجو ذلك .. قالت : ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معى فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمرهم حتى أن صواحبى

---

(١) اذمت بالركب اى حبستهم لانقطاع سيرها من عجفها اى هزالها وضعفها ، واذنت الركاب تأخرت من الكلال واصله اتت ما تلام عليه

(٢) حافل كثيرة اللبن

ليقلن لي « يا ابنة ابي ذؤيب ويحك أربعي عليها(١) أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ » فأقول لهن : « بلى والله انها لهي .. والله أن لها لشأنا »

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنا فنحلب ونشرب وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعاتهم : ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعا لبنا ، فلم نزل نتلقى من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفطمته ، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان »

فيا لك من سعيدة يا حليمة ، اذ كتب لك ارضاع اليتيم الذي تربيه العناية الالهية ، ولم يكشف لك من آثارها الا هذه البركة التي ملأت بيتك ، وويلكن أيتها المرضعات الغبيات المعرضات عن اليتيم التماسا للرضع الذين لهم آباء . لقد فاتكن الحظ وما الحظوظ بالاختيار ، وعزاء لكم أيها اليتامى فقد عاش محمد العظيم يتيما

في دور الطفولة

بعد أن ربي « محمد » (ص) في بني سعد عند آل السعيدة حليمة ، جيء به الى أمه ، فذهبت به وهو ممتلىء قوة ، وهو ابن ست سنين الى المدينة ليزور أخواله من بني عدي ابن النجار وفي عودتها الى مكة توفيت في مكان يسمى الأبواء . وكان عبد المطلب شديد العناية بحفيده ويتوسم فيه علو الشأن فلما بلغ الثامنة من عمره ودعه مفارقا هذه الدار ، وأودعه للعناية الالهية التي تقترن بمنابع

---

(١) أربعي أي ارفقي واقتصري

الخير والبر ، والبركات ، ونوافح الرأفة والحنان ، وقام مقامه ابنه أبو طالب شقيق عبد الله أبي النبي (ص) فأدخله في آل بيته وتعهد تربيته وتثقيفه

وكان أبو طالب ذكيا ، شهما ، صادق المروءة ، ماضي العزيمة ، محبا للعدل والانصاف . عرفنا كل ذلك فيه من تكليفه نفسه أقصى ما يمكن أن تكلف النفس في حماية ابن أخيه لما قام بالدعوة ، ومن مواقفه أمام قريش في نصرته ، والذود عنه . وقد خلف أبو طالب أباه عبدالمطلب في المقام السامي بين قومه ، فكان ابن عبد الله يتنقل في بروج العز والسؤدد والسعادة في آفاق الشرف الهاشمي وتنطبع في جوهره الكريم صور البر والعدل والاحسان على مثال الخلال الشريفة التي كان يتحلى بها ذلك الرجل السامي التربية « أبو طالب »

الرعاية البدنية

لقد رأينا من آثار العناية الأزلية بذلك اليتيم العزيز ما يصح القول معها انه كان مستغنيا عن تربية أحد ، ولكن لماذا لا نقول أن اعداد ذلك العم الفاضل لتربيته في الصغر كان من جملة آثار العناية الفائقة به (١)

أما رعايته البدنية له ، فقد كانت على غاية ما يتصور علماء الصحة ، ولذلك كان من آثارها قوة جسدية لهذا المبارك لا نظير لها ، وصار على صورة من الجمال كانت تجعل الذين يرونه يقولون لم نر مثله . ولا يتم الجمال

---

(١) ان جل ما ذكره المؤلف رحمه الله في الفصل استنباط من قريحته ليس فيه شيء منقول يثبت ان اباطالب كان ممتازا بما يذكره من شئون التربية يتوخاه في تربية ابن اخيه بحيث ينسب اليه ما امتاز به « ص » على الاتراب وغيرهم ، ومنهم أولاد ابي طالب ، وقد بالغ الكاتب فيما ذكره فيه من تلقينه انواع الدروس التجارية والاجتماعية في استصحابه اياه في سفره الى بصرى من بلاد الشام وهو ابن ١٢ سنة وقيل ابن ٩ سنين

الا بصحة البدن ، وهى انما تتم بحسن الرعاية الجسدية

واما تربيته اياه التربية العقلية فكانت جديرة أن يسجد أمامها فلاسفة النفس وأساطين العقل ، وهناك من آثارها قبل النبوة ما يجعلنا فى حيرة من أمر هذه القبيلة الصغيرة التى تقطن بلدا بعيدا عن بواعث الرقى الذهنى ، ومناجم الاشراق الفكرى .. لا كتب يدرسونها، ولا قواعد للمعرفة يتبعونها ، ولا شىء الا غرائز طيبة يتوارثونها ، ونظم عامة يتناقلونها وحصافة أوتوها فى نقش أصح التجارب فى المدارك ، والاحتفاظ بأثبت الفوائد فى الذاكرة

وكذلك يفعلون فى التربية الاخلاقية ، ينشئون الذرية على دروس المشاهدة فى مدارج العمل ، ودروس القصد والاعتدال فى معارج الامل ، فيأتى من تلك السلالات التى لم تلحقها عدوى الاجيال الفاسدة نوابغ فى العقول والاخلاق ، وأفذاذ فى الهمة والاعمال ، وذلك كان شأن أبى طالب ، ودأبه مع ابن أخيه العزيز ، وربيبه النجيب

جو مثالى

نشأ « محمد » (صلوات الله عليه) فى جو مثالى من التربية القومية على يد ذلك الفاضل العظيم ، فجاء منه رجل أحسن الناس خلقا وخلقا ، وأذكاهم عقلا ، وأزكاهم نفسا ، وأصدقهم لسانا ، وأنداهم فى العرف يدا ، وأثبتهم فى الازمات قلبا ، وأرحمهم للضعيف ، وأشجعهم على القوى ، وأبرهم للقريب ، وأعدلهم للبعيد ، وأقربهم الى المعروف سمعا ، وأبعدهم فى الامور نظرا ، وأكثرهم سدادا فى الرأى ، وأشدهم اقداما ، وألينهم للصاحب جانبا ، وأكرمهم للخير صاحبا ، وحسبك أنه عرف منذ صباه بالامين ، وما زال على هذا المنوال حتى أكرمه الله

بذلك المنصب العظيم ، فزاده جمالا واجلالا وكمالا ، والله أعلم حيث يجعل رسالته

نشأ ذلك الفاضل على كل ما يزين الرجال من الاعمال ، فلما كان ابن اثنتى عشرة سنة سار به ابو طالب الى الشام ، وكان تاجرا فأوقفه فى هذا السفر على ما تكن الارض وتعلن من طبائع الاقاليم المتغيرة ، وأحوال العالم المتحولة . ففى طريقهم من مكة الى الشام منازل أمم كانت فأبيدت . كانوا على وجه الارض جمالا لها فلما حادوا عن السنن التى تحيا بها الامم تزعزعت الروابط بينهم ، وطارت نعمتهم جميعا ، وأصبحوا كأن لم يكونوا « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا » وفى رؤية امثال هذه المنازل الخاوية أو المنتقلة الى غير أهلها عبرة عظيمة هى أجل ما فى السفر من الفوائد . ولقد كان فيما أوحى الى هذا المنعم عليه بعد أن صار نبيا قوله سبحانه (أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة واثاروا الارض وعمروها اكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

وفى طريقهم هذا ، أوقفه عمه على قرى الشام ، ودساكرها ، ومزارعها، ومصانعها ، ومتاجرها ، وحكومتها، واراه كيف يكدح الناس جميعا لياكل نفر منهم خبزه بعرق جبينه ، وليتمتع نفر آخر بثمرات تلك الارض الطيبة ، ونفائس ما تنتجه تلك الايدى العاملة ، وكيف يعمل شخص لآخر فى المجتمع ليستمر بقاؤه ، ويحفظ نظامه

ومر به على الاديرة والصوامع حيث ينقطع نفر آخرون عن المزاحمة فى هذا الحطام الزائل ، متوجهة نفوسهم الى الوطن الذى يليق بالروح الغريبة فى هذا الهيكل الجسمانى ، غير ممدودة أيديهم الى شىء من هذه الارض

الا الى ما يقي البدن من جـــوع وعرى ، وذلك يتيسر ببعض حبوبها وأعشابها ، وبعض أصواف حيوانهـــــا وأوبارها

فى بعض تلك الاديرة فى «بصرى» وقف به على الراهب « بحيرا » وكان على حظ عظـيم من علم الفراســـة أو الكهانة فأنباه بما سيكون لابن أخيه من الشـــأن العظيم وأوصاه بمزيد من العناية به

دروس وتجارب

وفى هذه السفرة دربه على أساليب التجارة ، وأطلعه على ضروب البضاعة ، وصنوف الاداة والمـاعون التى يقوم التجار بتبـادلها ، وكيف يحمـل كل منهم من بلده مالا يكون فى غيره ، ثم يحمل الى بلده ما ليس فيه ، وكيف يكون لهؤلاء الوسطاء فى نقل حاجات الناس من الفضل فى تيسير سبل العيش

وناهيك بما ملأ به أبو طالب ذهنه فى هـــذه الرحلة التجارية من صنوف المعارف ، وأنواع التجـارب . وفى درس كهـذا من فوائد التربية العمليـة ما ليس فى ألف درس من دروس التربية الكتابية أو النظرية

ولمـا كان ابن أربع عشرة سنة أحضره معه فى حرب الفجـار ــ وهى حرب نشبت بين قريش وبين قيس ــ فرأى فى هذه الواقعة كيف تعبأ الصفوف وتتقـــابل الابطال وكيف يصبر الشجعان وان أودى بهم الصــبر الى حتفهم ، وكيف تكون نتائج الصبر وحسن التـدبير فى الحروب ، وكيف تكون عاقبة الذين تنقطع قلوبهم جبنا وتخور عزائمهم جزعا

ولم يباشر فى هذه الحرب قتالا وانما كان ينبل على أعمامه ، أى يناولهم النبل ، أو يرد عنهم النبل .. وكان

ذلك كافيا لتدريبه على مواطن النزال ، ومواقف النضال. وليس بخاف أن الاخذ بيد الناشىء الى معارك أبطال المبايعات ، ثم معارك أبطال المقابلات والمقاتلات هو أعظم الوسائل التى تجعله أهلا للمقامات العلى بين الرجال ، حتى اذا أتاح الله له الاخذ بيد قوم الى مراتب العز والسؤدد والصلاح والفلاح ، كان نعم الدليل الهادى ، ونعم المرشد

فلما بلغ خمسا وعشرين سنة عرضت عليه سيدتنا « خديجة » أن يخرج فى تجارة لها الى الشام ، وتعطيه أكثر مما كانت تعطى غيره من التجار . وأشار عليه عمه بقبول ذلك ، وطلب له أضعافا ، فرضيت وسار بتجارتها مع الركب الى الشام ومعه عبد لخديجة اسمه «ميسرة» فلما رجع بالبضائع اليها باعتها فربحت أضعافا وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة « خديجة » معه

الفصل الحادى عشر

الحب الشريف

سيرة عاطرة

ان اكرم السير ، سيرة أهل الفضيلة .. وما الفضيلة الا من خصائص النفوس ، فمن كان من عشاق الفضائل حسن به ألا تفتر نظرات بصيرته الى النفس فهي مستقر الخوارق ، ومستودع العجائب

النفس مجلى الآيات الكبرى ، ومهبط الفيض العلوى ، والمرآة العظمى التى ينكشف بها الازل والابد ، والمطبعة العظمى التى ترتسم بها الاشياء وتسجل الصور ..

هى السلك الممدود بين مبدع الطبائع ، ومقيم الشرائع ، وبين الجواهر المتألقة الصامتة ، والظواهر المسخرة المطيعة ، فهى خليفة عليها واقفة على خطواتها ، مشرفة على حركاتها ، وهى مجذوبة من طرف أليها بجاذبية الانس والعادة ، ومجذوبة من طرف آخر الى مصدر بوارقها بجاذبية الحب والشوق ، فبانجذاب النفس الى الظواهر تأخذ الظواهر حظها من الانكشاف ، وبانجذاب النفس الى مانح الظهور تأخذ النفس حظها من الشهود والاشراف ، فيحق لها فى الحالتين أن تتمجد بما ميزها به فاطرها تباركت عظمته ، وتعالى شأنه ..

ان أعظم خصائص النفس الحب والبغض ، بل أن هاتين الطبيعتين المتضادتين اعظم نواميس الاكوان والكائنات كلها ، لكن اختلفت ألوان الحب ، وتباينت الاشواق ، وأوتيت النفس الانسانية أعظم نصيب من هاتين الطبيعتين لاتساع المحيط الذى تدور فيه ، ولاتصالها بعالم الحس وعالم

الغيب وترددها بالانجذاب بينهما ، فهى ان وقفت يوما مع الظواهر انست بها فعشقتها لما أضفى عليها مبدعها من الحسن الذي هو وصفه ، وان ارتفعت الى المبدع دهشت فتولهت فتدلهت لما هنالك من المجالى الازلية التى تطير السرائر شوقا الى التمتع بها .

ان الفضائل والرذائل ، والخيرات والشرور ، والحزن والسرور ، والرغبة والرهبة ، والاقدام والاحجام ، والكسل والنشاط ، والارتفاع والهبوط .. كل ذلك من مبتدعات الحب والبغض وآثارهما . وكل درجة من هذه الاشياء فانما هى على مقاييسهما . هما بالاختصار ركنا السعادة والشقاء . فمن اهتدى الى تصريفهما والجرى بهما على سنة مثلى فقد أهديت اليه السعادة وأوتى بالحب الشريف والبغض الشريف حظا من الخير عظيما

كانت السيدة « خديجة » ذات قلب طاهر ، والقلب الطاهر مركز الحب الشريف ، فماذا احبت سيدتنا هذه ؟ كان قلبها تواقا الى معالى الامور ، عظيم الشغف بمحاسن الاخلاق . وقد أمد الله فطرتها نبلا وسموا ، فقويت معرفتها بالمكارم ، وعظم علمها بأن الفضائل هى التى تليق بالانسان سواء وقفت نفسه مع هذه المحسوسات أم أرادت أن تندرج فى زمرة عشاق المجالى الازلية

عرفت هذه السيدة صلة النفس الانسانية بمن منه انشقت اسرارها ، وانبثقت انوارها .. فكان لها شوق الى جود عظيم يفيض عليها من العناية الربانية ، كما هو شأن ذوى السرائر الصافية ، وقد كان نتيجة هذا الشوق أن ألهمت قوة فراسة .. والفراسة نور ، فكانت تهتدى بها فيما هى حائمة الروح (١) عليه من الفضائل ،

---

(١) اى فيما كانت روحها حائمة عليه . ومن العجيب عثور قلم الكاتب بهذه العبارة ثم سكوتنا له عنها

ومن أحب شيئا أحب أهله من أجله ، فلما عرفت ابن عبد الله ووجدت فيه ما يعشق من المزايا النادرة ، انتثرت حبة من تلك المحبة الشريفة التى كانت بها تنشد المكارم فوقعت فى موضع من قلبها لتنبت شوقا الى هذا الرجل الصالح الذى ألفت المكارم كلها لديه ، وأيقنت أن معرفتها هذا السعيد بمزاياه العظيمة ، هو أعظم الآثار التى كانت تتشوق اليها من لدن العناية المرجوة

الآن وجدت محبة الفضائل والمحامد أعظم من تتجلى الفضائل والمحامد فيه فكيف ينفر منه قلبها ؟ بل كيف لا يميل اليه فؤادها ؟ فالامانة هو ذلك المشهور بها ، وقد اختبرته فى تجارتها فربحت بواسطته أضعافا . والشجاعة هو الذى نشأ فيها على يد عظيم الهمة أبى طالب . والنباهة هو الذى تسطع فى محياه طوالعها . والحكمة هو الذى تقرأ فى سيماه آياتها . والعفة هو ربها ، والمروءة هو مجمع شواردها . ومحاسن الخلقة هو النسخة الصحيحة منها .. فأى الفضل ، وأى المحامد تريد بعد هذه مريدة المحامد ؟.. كمال خلق وكمال خلق، جمال شخص وجمال نفس ، حنكة لم يظفر بمثلها أقرانه من الشبان ، ووقار لم يحظ بأقله الكبار ، وهمة لا تقف أمامها الصعاب ، وعزيمة لا تنى أمام الثقال.. قوى شديد، حليم رشيد ، كما يقول فيه عمه أبو طالب وهو به جدير :

فمن مثله فى الناس أى مؤمل
اذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش
يوالى الهـا عنه ليس بغافل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب
لدينا ولا يعنى بقول الاباطل

فأصبح فينـــا احمــد فى أرومة
تقصر عنــــه ســـورة المتطـاول

فما أكثر غبطة السيدة « خديجة » إذ عرفت هـــذا السيد الجليل ! وما كان أجدرها بأن يتعلق قلبها الطاهر به ! وما أقوى نور فراستها اذ علمت أنه لا نظير له ! وأن سعادتها لا تتم الا به! وما أحقها أن تغتنم الفرصة وتسبق الى الزواج من هذا الشريف الذى جمع الى شرف النسب شرف الخلال (١)

---

(١) مما يدل على أن أملها فى نبوته كان عظيما ، ما رواه الفاكهى فى تاريخ مكه من حديث انس وهو الخبر الوحيد الذى روى فى حبها الشريف ، للكمال الاعلى فى شخص محمد « ص » ولو اطلع عليــــه المؤلف لاورده وهذا نصه :

روى الفاكهى فى تاريخ مكة من انس أن النبى « ص » كان عنــــد ابى طالب فاستأذنه أن يتوجه الى خديجة فاذن له وبعث بعده جارية يقال لها نبعة ، فقال انظرى ماتقوله خديجة ، قالت نبعة فرأيت عجبا ما هو الا أن سمعت به خديجـــة فخرجت الى الباب فاخذت بيـــده فضمتها الى صدرها ونحرها ، ثم قالت بأبى أنت وأمى والله ماافعل هذا لشىء ولكنى أرجو أن تكون انت النبى الذى ستبعث ، فان تكن هو فاعرف حقى ومنزلتى ، وادع الاله الذى يبعثك لى . قالت لها « لئن كنت انا هو قد اصطنعت عندى مالا اضيعه أبدا ، وان يكن غيرى فان الاله الذى تصنعين هذه لاجله لايضيعك أبدا » ويؤيد هذا ما ورد فى كيفية بدء الوحى فى الصــــحيح وهو أن خديجـــة قالت له حين خاف على نفسه عاقبة ما أصابه من الجهد عندما ظهر له الملك « كلا والله ما يخزيك الله ابـــدا ، أنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضـــيف ، وتعين على نوائب الحق »

وكذا ما ثبت من أنها كانت تعد له الزاد لينقطع الى التحنث فى غار حراء . وروى الواقدى بسنده الى نفيسة بنت اميـــة اخت يعلى ، قالت كانت خديجة امرأة شريفـة جادة كثيرة المال ، ولما تأيمت كان كل شريف من قـريش يتمنى أن يتزوجها ، فلما سافر النبى «ص» فى تجارتها ورجع بربح وافـر . رغبت فيه فارسلتنى دسيســــا اليه ، فقلت له ما يمنعك أن تتزوج فقال « مافى يدى شىء » فقلت فان كفيت ودعيت الى المال والجمـــال والكفـاءة ؟ قال « من ؟» قالت : « خديجة » فأجاب

الفصل الثاني عشر

تفاؤل هذا وقته

نبوءة ..

كانت الكهانة شائعة في ذلك الزمان ، كما هو شأنها في كل الازمنة الى زماننا هذا . وكان علماء التوراة ينبئـون دائما بظهور نبي منتظر ، وبعضهم كان يقول انه سيظهر من العرب . والراهب بحيرا تفرس في ابن اخي ابي طالب اذ كان معه صغيرا وقال له : سيكون لابن اخيك هـذا شأن . ولم يكن بعيدا عن المألوف أن يتنبأ بعض الناس بالمستقبل ولكن لم يكونوا يصدقون كل شيء من هـذا القبيل ، ولا يكذبون كل شيء ، كما هو الشأن في أهـل زماننا أيضا

وقد كثر التكهن قبيل ظهور النبي (ص) ولـكن اكثر الناس لم يكونوا يبالون بتلك الاخبار لانهم تعودوا أن يروا شيئا من كذب الكهانة مع مصادفة صدقها أحيانا فلم تكن الثقة بها في الحقيقة تامة ولا سيما في الامـور العظيمة

وبينما نساء من قريش مجتمعات في عيـد لهن في الجاهلية اذ تمثل لهن رجل ، فلما قرب نادى بأعلى صوته: يانساء أهل مكة سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمـد فمن استطاعت منكن أن تكون زوجا له فلتفعل .. فكذبنه ورمينه بالحصى ، وكانت فيهن « خديجة » فلم ترمه كما رمينه .

لم يكن هـذا المتنبيء كاهنـا معـروفا ، لذلك احتقره النساء لانهن لا يعبأن في الغالب الا بأهـل الشهرة ،

ولكن كان قومهن يعتقدون بالهاتف وهو على اعتقادهم روح ينطق بالشىء من حيث لا يرى أو يتمثل بصورة بشرية فيقول قولا من هذا القبيل ثم يغيب ، فكأن السيدة « خديجة » اعتقدت ان هذا المنادى هاتف فلم ترمه كما رماه ترائبها .. ولعلها صدقت اذ ذاك ، وتفاءلت خيرا ورجت أن تكون صاحبة هذا الحظ

وان صح ظننا هذا بالسيدة ، كان لنا دليل جديد على عظيم تطلعها الى بركات الجناب القدسى فان الرغبة فى الزواج من المنعم عليهم بالبنوة ، لا تعظم الا من العارفة بذلك الجناب الاعلى الذى يتفضل بخلعه النبوة على من يشاء

كانت النبوة معروفة عند قومها بما سمعوه من أخبار أنبياء جيرانهم بنى اسرائيل ، ومعروف أن النبى رجل كالرجال .. ولكن يصطفيه الله ويرفع مكانته ودرجته على درجات سائر نفوس البشر حتى يطلعه على ما لم يطلع عليه أحدا من أسرار عالم الغيب . وليست النبوة ملكا أو حظا زائدا من نعيم الدنيا ، بل جل الانبياء الذين سلفوا كانوا مقلين ولم يكن حظهم الا مقاومة الناس اياهم وتعذيبهم ، والنساءانما يرغبن فى النعيم والرفاهية ورغد العيش وكثرة الحلل والحلى ، وكل هذا لا يرجى لدى الانبياء الذين تنصرف أنظارهم عن متاع الغرور ويلتفتون الى ما فيه غبطة الروح ، فلا تتصور من النساء أن السعادة عند الانبياء الا اللاتى أنعم الله عليهن بسلامة الفطرة وقوة الاستعداد كالسيدة « خديجة »

ولما رجع عبدها « ميسرة » من الشام فى تلك السفرة التى ذهبت فيها مع الهاشمى « محمد » أخبرها بأحوال غريبة رآها منه لا يكون أمثالها الا لمن سمعت أخبارهم

من الصالحين المباركين ، فما لبث أن رن فى قلبها صدى ذلك الصوت الذى سمعته باذنها ، صوت ذلك المنـادى فى النساء المجتمعات اللاتى كانت معهن فى العيد .. وكان هذا الصدى الذى رن فى قلبها تتألف منه هذه الكلمات :
« تفاؤل هذا وقته »

الفصل الثالث عشر

خواطر في قلب خديجة

حيرة !

كانت خديجة تعرف أن النبوة ليست بالكسب والاجتهاد ، وانما هى عطاء واختصاص من الحى الازلى الدائم .. ولكنها كانت تردد فى نفسها ما حكاه لها عبدها ، ميسرة . ويرن على اثره ذلك الصدى فى قلبها فتقول فى نفسها اى مانع يمنع رجائى بفضل الله بأن اكون صاحبة الحظ من الرجل المبارك الذى انبأ به الهاتف ؟ اى مانع يمنع فضل الله عن قومى اذا أراد أن يخرج منهم ذلك الانسان الذى يقول عنه علماء التوراة ، وكان لها ابن عم من جملة علماء هذا الكتاب

ثم اذا مر بقلبها خاطر آخر يقطع عليها هذه الآمال وينهاها عن هذه الاحلام ــ التى كانت تراها فى اليقظة ــ ترجع الى الشىء المحقق الذى لا ينازع فيه خاطر ولا يمارى فيه أحد وهو ما تحلى به ابن عبد الله من صفات الكمال ، فتتمثل ذهنها تلك الطلعة السنية ويلمع أمامها بريق تلك العينين الدعجاوين . وتنسى الشمس وسائر الدرارى حين تذكر دائرة ذلك الوجه المتألق . ويقوى ايمانها بالملائكة ، اذ ترى فى هذا الشخص البشرى آيات القداسة والطهارة ، فتقول فى نفسها أفليس حسبى أن اكون ربة النصيب من فتى قريش الوحيد الذى كمله الله ، ان لم أكن صاحبة الحظ من الصالح الذى انبأ به الهاتف

ثم تعود اليها الخواطر ، وبقلبها ذلك الحب الشريف الذى نبتت بذرته فى قلبها على ضروب من الحيرة ، فتقول

فى نفسها مرة أخرى : من لى بهذا الكامل الذى مال اليه قلبى ، وحامت حـــوله خـــواطرى ، وعكفت فى دائرة محاســــنه نفسى ؟ أليست تمنع العادات بأن أكون أنا الخاطبة ؟ أف للعـــادات ما أثقل أحكامهـــا ، وما أظلم قضاءها ، وما أشد تعقد مســـالكها ، وما أسوأ عواقب الجمود عليها ، وما أبخس حظ الذين لايتزحزحون عنها !

العادات والتقاليد

نعم .. أف للعـــادات ، فكم تعطلت بعض الاجيـــال فى سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضار . وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكير ، فانطمست عليهم سبل الأرتقاء فى معارج الاستحسان والتحسين . وغمت عليهم مطالع السعادة الحقيقية للنفوس

أف ثم أف للعادات ، فهى قاطعة الطريق على مبتكرات العقول تزج بها فى مهاوى العدم ، أو تودعها فى ســـجن قفر ممنوع عنها كل ما يبرزها . ويا عجبا لبنى آدم الذين يضعون العادة فى هذا المكان من الحكم على نفوسهم والقضاء على عقولهم وقلوبهم .. أليس لهم مايذكرهم بأن العادة من صنع أيديهم وتصوير أحلامهـــم ؟ أليس لهم مايبصرهم بأن العادة يجب أن تكون تابعة لا متبوعة، ومنقادة لا قائدة؟ حتى اذا فتحت أمام بصائرهم أبواب أخر لما هو خير ، ودعوا عادتهم تلك محمودة على قدر ما نفعت ، وملمومة على مبلغ ما أضرت ، واستقبلوا أخرى .. مصاحبيها على مقدار ما يدوم من أسبابها ، وينفع من أبوابها

تبرمت « خديجة » بالعادة كثيراً ، وتأففت من تقلبها طويلا ، وسردت كل سيئات الجمود عليها فى نفسهـــا التى هى أعلى من نفوس الغافلين عن المقدمات والنتائج ، لمـــا خصها الله من سلامة الفطرة ، وفضل الفطنة ، وقوة

المعرفة ، ومزيد حرارة الهمة

ثم عادت تعذر الضعفاء الذين لايستطيعون التغلب على الثابت الراسخ ـ وهم الاكثرون ـ وتذكرت أسباب رسوخ بعض العادات ومنهـا وفرة فوائدها فى أوقات سلفت ، وأحوال مضت .. ورأت أن النـاس يرثون من السالفين كل شيء ولا يميلون الى التغيير حتى يميـل بهم الدهر كثيرا على يد عاصف من الحوادث ، أو هبـة شديدة من ارادة بعض الاشخاص ، وكم دكت الارادات القوية أطوادا من العادات

وربما كانت هذه السيدة تستطيع التغلب على العـادة فلا تجد بأسا من أن تخطبه بنفسها لانها كانت قوية الارادة . ولكن من لها بأنه لا يرد خطبتها وهى أرملة فى الاربعين من العمر ، وهو فى الخامسة والعشرين ، يشف محياه عن ذماء الفتوة ، وينشر شذى الشباب ، والمرأة مهما قويت ارادتها تتذكر الفشل فيغلب احجامها اقدامها ، وهـذا من أسباب التقليد الشائع فى أن تكون هى المخطوبة

ما أقسى شعور المرأة التى تجد ضالتها من السعادة ، ولا تستطيع الاقدام على تحصيلهـا ! انه شعور قاس على الرجل أيضا ، ولكنه على المرأة أصعب ، لانها اضعف على كل حال . بيد أن ضعفها الذى زينها الله به فى عين الرجل ، تمت به نعمتها ، وعلت كرامتهـا لديه .. فقوة الخفر والحياء من ضعفها ، وذلك أعظم حلية طبيعيـة تزدان بها ، ومن افتقرت الى هذه الصفة منهن رغب عنها الكرام من الرجال . وشدة الرحمة من ضعفها ، وما أنبل واجمل وأكرم هـذا الضعف الذى بدونه تمقت المرأة . والجبن نتيجة ضـعفها .. ولولاه لما كان ثمة عـدالة فى اقتسام الاعمال بينها وبين الرجل

فماذا تصنع قوة ارادة السيدة « خديجة » أمام شدة خفرها وحيائها ، وماذا تنفع شجاعتها أمام خشيتها من الفشل ، وماذا تجدى قوة عزيمتها وصبرها أمام المزعجات من خواطر الحب الشريف الذى ملأ قلبها الطاهر ، بعد أن كان نبتة صغيرة غرست فيه

اللهم رحماك فليست القلوب من حديد ، ولم تعد من صخر ، ان نسيم الخواطر فيها يصدع ان جاءها برائحة اليأس ، ويرأب ان أتاها برائحة الرجاء ، وكذلك كانت خواطر السيدة « خديجة » صادعة ، ورائبة ، بيد أن رجاءها كان أغلب ، ولو كشف لها الغطاء عما يحف بها من السعادة المغيبة عنها اذ ذاك لانقلب رجاؤها يقينا ، ولكن لتستكمل الغرائز حظها من النفوس ، كتب على الانسان أن يغيب عنه ما سيصادفه من السعادة والشقاء، فترى منحوسا يضحك ويلعب والشقاء سوف يساوره عما قريب . وترى مسعودا يتململ ويمسى ويصبح على مضاجع الحيرة والارق ، حزينا واجما ، والسعادة من حوله ترفرف بأجنحتها وسوف تقف عما قريب على رأسه ، وتشمله ، ويتبارك بها بيته

فما أشد حاجة هذه السيدة السعيدة فى مواقف حيرتها تلك الى هاتف يبشرها بقرب اتصال السعادة التامة بها .. ما أشد حاجتها الى من ينبئها بأنها هى الجوهرة النفيسة التى هيئت لذلك الذى ميزته العناية الازلية أكمل تمييز . ولكن ليظهر مزيد فضلها فى الميل الى رب الفضائل والمكارم التى لا تبارى حجب عنها كل هاتف وحبست عنها البشرى حتى تملكت الخواطر قلبها الكريم .. وتمكن منه كل التمكن ذلك الحب الشريف ، لذلك الذى أجمعت فيما بعد قلوب الملايين التى لاتحصى على حبه

الفصل الرابع عشر

الزواج

مهمة شاقة

لا بدع اذا لعب الشوق بنفوس المحبين ، كما يلعب بالكرة اللاعبون ، فان قوام الكائنات بشوق ذراتها بعضها الى بعض ، وكان جديرا أن يتجلى هذا المعنى بزيادة فى غريزة خليفة الله فى الارض ، نعنى الانسان ، كى لايكون بنو آدم وحواء انقص من الجمادات حظا فى هذا الناموس الكبير الفائدة

فبعد أن تمكن من « خديجة » الشوق الشريف هذا التمكن ، أصبحت جديرة أن تتقبل هدية سعادتها ، وتنكشف لها الحجب عن الرحمة التى ترعاها ، فهبط على قلبها خاطر جديد كان به الوصول الى النعمة الجديدة . خطر لها أن تبعث الى الذى سكنت مكارمه ومعاليه فؤادها رسولا تعرف بواسطته رغبته ، وتستنىء به سعدها مما ينزل على قلبه من الالهام بهذا الشأن ، وساقها الى هذا الخاطر قوة رجائها بالله سبحانه وحسن ظنها بان هذا الكامل لا يرد رغبة مثلها ، وهى الجامعة لصنوف من المعالى يقل اجتماعها فى سواها

كانت لها صديقة اسمها نفيسة — وهى أخت يعلى بن أمية — فقصت عليها حديثها وائتمنتها على هذه الرسالة . ولم يكن صعبا أن تؤدى الصديقة هذه الامانة لانها ستتكلم كأنها صاحبة رأى تشير به حتى اذا وجدت مجالا كانت وكيلة فى ابداء القبول

لم تكن النسوة اذ ذاك محتجبات ، ولم تكن ممنوعات

من الحديث مع الرجال ، فلم تكن رسول (خديجة) محتاجة الا لشيء من قوة الجنان أمام ذلك المهيب العظيم وقد استمدت من سعد مرسلتها حظا منه ..

ومن يكن راعيه السعد فقل
ما شئت فى تيسير ما يرجوه

ذهبت نفيسة هذه الى ابن عبدالله ، وفى القبيلة الواحدة يعرف الناس بعضهم بعضا فقالت له ما يمنعك ان تتزوج؟ فاعتذر لها بقلة المال اللازم للقيام بشئون العائلة ، قالت له : فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ، قال لها : ومن ؟ قالت له : خديجة

قالت هذه الكلمة وصمتت تنتظر ما سيبدو منه ، وأحدث هذا الكلام دويا فى فؤاده .. وبأى شيء يتحدث ذلك الفؤاد الطاهر حينئذ الا بقوله :

ــ خديجة الشريفة ، المعروفة بالطاهرة .. هى المناسبة، هى الموافقة ، هى الصالحة .. اذهبى يا نفيسة فانى سأخطبها ..

فرجعت تحمل هذه البشرى ، وقد حالفها الحظ فى هذه الرسالة ، فالله يعلم كيف كانت تتهيب السيدة خديجة منها .. ولم تنتظر كثيرا حتى أتى خاطبا ومعه عمه حمزة ، فقال عمها عمرو بن أسد بن عبد العزيز العزى : « هو الفحل لا يقدع انفه » وهو مثل عربى يقال للكفؤ لا يرد ان خطب

ما كان هذا الخاطب الكفؤ غنيا اذ ذاك ولكنه لم يكن أيضا معدما ، فهو من آل عبدالمطلب العامرة بيوتهم المشهورة باكرام الضيف واغاثة المحتاج ، ففى هذا السبيل تذهب أموالهم ثم يخلف الله عليهم من وجوه الكسب وأبواب الربح بما أوتوا من الهمم والشمم ، ولم يكن اعتذاره ذلك

اعتذار المعدمين وانما هو اعتذار المتربص أن يتوفر له مقدار أكبر . فمع قلة ماله فى ذلك الحين أصدقهـــــا عشرين بكرة لان اعطاء الرجل للمرأة صداقا سنة عربية لم يكن ليحسن تركها

والزواج عند العرب لم يكن يتطلب وؤســاء ديانات ، ولا تلاوة الرؤساء صلوات . بل هو عقد كسائر العقود المدنية يتوثق برضا المرأة وأوليائها ورضا الرجل . فبخطبة من الرجل وتقديمه الصداق واجابة من المرأة وأوليائها تصبح المرأة زوجة شرعية للخــاطب . وهكذا أصــبحت « خديجة » الطاهرة زوجة محمد الامين بكلمة أعلنها عمها عمرو بن أسد ، فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين !

الفصل الخامس عشر

بعد الزواج

البيت السعيد

بدات السيدة « خديجة » بعد هذا القران السعيد تزداد معرفة بهذا الجوهر الكريم الذى أتاحه الله لها فالقت الى يد هذا الامين بكل ماتملك ، ولم يرعها أن الكرم المستحكم فى سجاياه سيحمله على اخراج نصيب كبير من هذا المال الى الضعيف والمحتاج ، فان سيدتنا لم تكن — مع تدبيرها — بالشحيحة المحبة للمال الفانى ، بل كانت قد خلقت لتكون مساعدة على الجود ، وهل بعد معرفتها بهذا الكفؤ الشريف ترى لنفسها معه امرا ينافى رغبته ، أو رأيا يغاير رأيه ، وهى تلك العاقلة الحكيمة المستعدة أن تزداد كمالا كلما أشرق لها من سماء الفيض الالهى نور منه

واصبح هذا البيت ملاذا للمضطرين وأمنا ، فقصدته الايامى ، وشبعت فيه اليتامى ، وخفت فيه هموم كثيرين ممن حنيت ظهورهم بكثرة الآل ، وقلة المال

كانت تلك البلاد تواجه العسر أحيانا ، وكذلك كل بلاد العالم لا تسلم من العسر على الدوام ، فمساعدة الموسرين فى زمن العسر للمعسرين أمر تقضى به الانسانية ، لكن قليلا من الناس من يكون لهم حظ التغلب على شياطين الشكوك والاوهام التى تنهى عن الانفاق خشية الاملاق ، وأما سيدتنا فكانت ترى انفاق زوجها ومساعدته للمعسرين واخذه بيد العائلين من جملة المزايا العالية التى تقر بها عينها

وفى احدى الازمات كانت ملائكة الرحمة تحوم فى ذلك

البيت حول أحد الصبيان ، وتطوف فى آفاق نفسه لتطهرها من كلّ شر حتى لا يخرج من هـذا البيت الا وهو قدوة الناس فى الخير والصلاح

وكان هو لاهيا عما أعد له ، وعابثا بمثل ما يعبث به أترابه .. ولم يكن هذا الصبى يتيما بل كان أبوه حيا ، ولكن أبناء السعادة ـ أبناء المجد الابدى ـ أبنـاء المجـد السرمدى تستأثر العناية الازلية بكفالتهم وتربيتهم بصورة خاصـة ، وظواهر يميزها من هيئت بصـائرهم للاطـلاع الجيد

لم يكن أبو هـذا الصبى ليسـمح وهو حى أن يتربى كالايتام فى غير بيته لأنه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير « أبوطالب » ولكن اشتداد الازمة فى احدى السنين اضطره أن يقبل رجاء أخيه «العباس» وابن أخيه « محمد الامين » بأن يأخذ كلّ واحد منهما ولدا من أولاده تخفيفا عنه ، فكان هذا الاسعد الذى أخذه الامين هو على الذى صار الامام أبا الائمة ، وبدر سماء السيادة فى الامة

كانت تربية على فى هذا البيت من جملة المكتوب للسيدة « خديجة » من حسن الحظ فان الغيب كان يعـده لامر جليل له علاقة بهذا البيت

لعله لم يخطر على بال أهل هذا البيت اذ ذاك ، أن هذا الصبى الذى يدرج أمامهم فيسرون به سيكون الواسطة الوحيدة لحفظ نسلهم . ومن أين كانت تعرف السـيدة « خديجة » أنه لن يعيش لها من الذكور ولد ، وأن هـذا الصبى قد أعده الغيب ختنا كريما وبعلا صـالحا لبنتها الصغيرة . وكيف تعلم أنه لا يتسلسل لها عقب الا من تلك الكريمة فاطمة الزهراء ؟ وانى يخطر فى بالها انهـا كانت تربى هى وزوجها جدا لعترة تتصل بهذا البيت سيعدها

العالم من أشرف العتر وستبقى مباركة فى الارض دهورا طويلة عالية المنار ، عظيمة الشأن

نعم .. كل ذلك لم يخطر فى البال اذ ذاك ، ولم يكن الذى فى القلب الا القيام بالواجب الذى يقضى به التضامن.

نعم .. نعم .. كل ذلك لم يخطر فى البال ، ولانوى سيد هذا البيت مكافأة عمه على تربيته التى سبقت له فان بين ذوى القربى لا توجد مكافأة بل ثمة تضامن .. ولكن كان هذا آلبيت المملوء نعما حافلا بنفوس كثيرة تشاركه فى تلك النعم ، لأن لأهله نفوسا لا تعرف الاستئثار ، بل تراه من العار والشنار ، لا سيما اذا شقى الجار

وقد استفاد من خيرات هذا البيت كثيرون كما سبق أن اشرنا ، أما على فانما خصصناه بالذكر ليعرف من عرفه أو سمع بمناقبه العالية وفضائله الكثيرة ، كيف كان هذا البيت السعيد مسعدا للارواح ، كما كان مسعدا للابدان ، وليعرف القارىء بسهولة أن البيت الذى أخذ ابن أبى طالب آدابه فيه منذ كان صبيا قد كان مهدا لأكرم الآداب وأعلاها ، فان عليا المرتضى هو من عرفه العالم كله ، هو ذلك الامام الأكبر الخليق أن يكون مثال النبل وعظمة النفس .. هو مجمع المعالى وملتقى الاسرار العظمى ومظهر الولاية الكبرى

فما أكرم هذا البيت السعيد وما أعظم بركاته ! قد رأينا الأمين يجد فيه مجالا للتخفيف عن المثقلين ، والتنفيس عن المكروبين ، وفيه وجد المترددون عليه صدورا رحبة ، وايديا مبسوطة ، ولديه ينابيع الجود والسخاء ، كما سيطر العدل والوفاء ، ومنه أشرقت الاداب العالية ، والتربية الكاملة ، وماذا نرى من بركات هذا البيت بعد ذلك ياترى ؟

الفصل السادس عشر

العمل الروحي

مراسم العبادة

أشرفنا الآن على بحر كثيرة لججه صعبة مسالكه ، وصلنا الى ساحل هذا البحر ، ولابد من عبوره، وأكثر السفن لايوثق بها فى غمراته ، ولابسو ثوب الهداية رأس مالهم الدعوى ، وما حيلة الحائرين غير الرجوع الى الله فى الجهر والنجوى ؟

ههنا نبأ جليل تحار العقول المتحررة فى فهمه ، وتشتاق أن نقف على حقيقته وجوهره ورسمه .. هنا قد بلغنا من سيرة هذه السيدة الجليلة ، ان بعلها كان من دأبه أن يتعبد بعض الاوقات فى غار من جبل قرب مكة اسمه حراء فما هذا التعبد ؟ وكيف هو ؟ وما الذى ساق نفسه اليه ؟ وأى دين فرضه علينا ؟

هذا هو النبأ العظيم الذى تتمسك بنا العقول المستقلة اذ تسمعه ولا تدعنا نجوزه الى غيره من غير أن نوضحه ؛ واذا أخذنا فى ايضاحه نخشى أن نبعد القارىء عن سياق السيرة ، ولكن يقوى عزمنا على هذا الايضاح ظننا بأن الراوى الذى يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكايته قد يفيد القراء أكثر ممن يسرد الأخبار سردا

ان الاديان كلها رسمت أعمالا اسمها عبادات ، ولكن بعل السيدة « خديجة » لم يكن تابعا اذ ذاك لدين لأن دين قومه كانت عبادته تقوم حول تمجيد بعض الاحجار التى هى عندهم تماثيل أشخاص مقدسين ، ولم يكن هو قد تعود هذه العبادة التى راقت لهم ..

العبادة التى عرفت فى الأديان كلها بحسب الظاهر

اعمال وحركات يرسمها رؤساء الدين من أنبياء وغيرهم ، أما لبها فأشواق روحية تقوم فى نفس العابد أمام معبوده ويصح أن نسميها عملا روحيا حينئذ

كان بعل هذه السيدة يأتى فى غار حراء بعمل روحى تتوجه فيه روحه نحو بارىء السموات والارض ومشرف مكة وموجه نفوس العرب اذ ذاك اليها ، ولم يكن يقوم بمراسم معينة

ان البحث عن سبب تسمية تلك المراسم الخاصة عبادة، فى لغتنا ، يكلف به الباحث اللغوى . والبحث عن أسباب اختيار الاقوام السالفين هذه الصور والاعمال وادراجها تحت اسم العبادة يكلف به الباحثون فى التاريخ ، وأما البحث عن الاشواق الروحية أو تعبد محمد فى « حراء » فمكلف به كاتب سيرة السيدة « خديجة »

ان الكلمات لا يمكن ان تشفى الصدر فى تجلية هذه المعانى ، ولكن هذا الموضوع بهذه السيرة يدعو الى الخوض فى هذا الميدان الشائك

قد سمعنا فى سيرة زوج هذه السيدة أن روحه كانت من أسمى الارواح ونحن نؤمن بهذا .. ولكن اذا نحن لم نتعرف بالروح ولو قليلا فماذا يكون معنى ايماننا هذا ؟ لا ريب فى أن معرفتنا للروح أمر ضرورى فى هذا المجال ، وهو أمر يشتهيه كلّ امرىء ، لان كل واحد منا تخطر فى باله هذه المسألة

ما نحن ؟

هذا سؤال قد علم الذين بعد نظرهم فى ماضى البشر أنه من جملة فضل الله عليهم ، وهو أساس ما يسمى فى لغتنا دينا وديانة وملة ، واحد الأصول والاسباب فى ترقى هذا النوع الانسانى وسعيه نحو الكمال

هذا سؤال يحيط به غموض طال وقوف العقل عنده . ههنا مرسى سفينة العقل الذى يحاول معرفة نفسه ومنها يبتدىء مجراه لأجل ادراك هذا الجوهر

ومواقف الباحثين كادت تتشابه أمام صعوبة هذا السؤال ، اذ لا براهين عقلية قاطعة فى نفى شىء أو اثبات شىء فى الاجابة عنه .. ولكن اذا عزت هذه البراهين لا يعدم عشاق هذا البحث آيات كثيرة فى الموجودات . ومن فضل الله على الكائنات البشرية ، أن جعل قلوبهم مستعدة لقبول ما تأتى به هذه الآيات من ضياء ، ولا يحرم منه الا قليلون تزمن فيهم الحيرة لاسباب محسوسة وغير محسوسة

هذه الموجودات قد ملئت آيات ، فاذا حالت دونها الحجب لج العقل فى محارات أو عمايات ، واذا بدت لا يحجبها حاجب سلك فى هدايات .. انها لمن تأمل مراتب وصفوف .. ولكل وجود قوة ، ولكل قوة أثر . اختلاف القوى وآثارها ، هو على مقدار أشكال الموجودات وصورها وحيزها . ولما رزق الانسان ملكة النطق وضع أسماء لكل ما لاح له من وجود ، وظن المسكين أنه بوضع الاسماء أحاط بالحقائق وهى لم تزده عنها الا بعدا

الانسان بعض هذه الموجودات ، وفيه قوى تحتاج حسب عادته الى أسماء ، فالروح للانسان اسم للقوة العظمى التى فيه ، اسم لما يكون به الانسان مستقلا متميزا يقول أنا ، ويقال عنه هو ، وان عفا أثره ..

آمن الناس بهذا الاسم متفقين ولكن فيما يدل عليه قد اشتد اختلافهم ، وحار نظرهم فى ادراك حقائق هذه القوى التى فى الانسان وفى كيفية علاقتها بهذا الجسم البشرى الذى متى برحته أصبح لا فرق بينه وبين كثير من

انواع الجمـــاد ، والذى يزيد حيرتهم شـــدة تســـامى بعض الأرواح كروح من سعدت بقربه ســـيدتنا صاحبة هذه السيرة

بحثت كالباحثين ، وحـــرت كالحائرين ، ثم وجـــدت كالواجدين ، فما ألذها على القلب من حيرة عقبـــاها بلوغ الغاية والحمد لله رب العالمين

اليك حديث نفسى بشانها : أفقت اليـــوم من النوم وتسلل حسى وشعورى من غلافه ، كما تسلل هذا الفجر من غمده ، فوجدتنى كأننى وليد هذه الساعة ، لأننى قبل هذه اللحظة لم أكن ارى هذه الاكوان ، ولم أحس بما فيها من الاصوات والالوان ، ولم أكن اشعر بما يلائمنى أو بما يؤلمنى ، فكأننى كنت غير هذا الموجود الجديد

اين كانت لذتى برؤية الســـماء وانسى بما على هـــذه الارض ؟ وأين كان ابتهاجى بزواهر هـــذه الزرقاء ، وزواخر هذه الغبراء ... ومن حولى الآن اغانى طيور ، ورقص غصون ، واريج زهور ، وبدائع نقوش ، وترتيب صنوف ، وحركات نور ، وتجليات سكون ، وأحس أنا آثار انفعال من كل هذا قد تحرك بها ما اسمه فكرى ثم تحرك بها ما أسمه لسانى ، فسمعتنى أقول : ســـبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا ..

سبحانك يا فاطر ، يا بارىء يا مصور ، ولك الحمد ! انا متذكر الآن أننى أبصرت هـــذه المرئيات ، وسمعت هذه الاغانى أمس حين بزغ الفجر .. فأين ذهب بصرى وسمعى بين ذينك البصر والســـمع اللذين كانا أمس وبين هذين البصر والسمع اللذين أتيانى الآن ؟ وأنا متذكر أن هـــذا الامر حدث لى مرارا كثيرة ، بل الوفا من المرات .. فما هذا الاحتجاب ثم الظهور ، وأين كان الاحساس محتجبا قبل ان عرفته أول مرة ؟

رباه ! من أسائل عن هذا .. ؟ ان هذه الصوامت التى من حولى لاتجيب ! لعلها لا تسمعنى ، أو لعلى لا أسمعها أو لعلها لا شـأن لها بهذه الامور ، وكيف أصبر على جهلى بشىء يتعلق بى ، وكيف لاأبحث عن منشأ احساسى وعن احتجابه ؟ ألا يهمنى أن أعرف هل أمره كأمر هـذه الشجيرات يتساقط ورقها ، ثم يعود ، ثم تيبس مرةواحدة فتصير حطبا ثم رمادا ؟ أم امره كأمر هذه الشمس يظهر نورها من جهة ، ثم يغيب عنها ، ثم يعود اليها ، وهولايزول أبدا ؟ كيف أقنع النفس الانسانية بحالة هذه الشجيرات وهى لها من الخواص والآثار ما ليس لشىء غيرها فى هذه الارض ؟ كلا ، سأسائل .. ثم ، كلا .. سأسائل !

رفعت رأسى الى السماء ، فألفيت بواهر ولا مجيب ، وأهويت به الى الارض فألقيت بواهر ولا مجيب ! ..

فضاء أمامى ، لا أعرف له مساحة أو حدودا .. تارة يفيض نورا ، وأخـرى يحتجب بالظلمات ، أرانى وأرضى محمولين فيه ، ولا أعرف من هذا المتن العظيم الا أسماء وضعوها له لا تشرح كنها ولا تؤذن بدلالة كافية ..

تتلاعب فيه النسمات لعلها ناسـية أن الامر جد ، وما هو بالهزل واللعب ، وتتناغى فيه الاصوات كأنهـا تحسب أن فى كل موجود عقلا أو حسا يأخذ بحظ منها ، ولعل حسابها فى غير موضعه !

بينى وبين كل ما هو محمول فى الفضاء مثلى علاقة قد عرفتها بهذا النور البازغ ، فهل بزغ هذا النور لأعرفها أم لتعرفنى ؟ وهل كانت لى ، أم كنت لها ، أم كنا جميعا لهذا ، أم كان هو لنا ؟ .. ولكننى أعرف يانور أنه لولاك لما عرفت شيئا ..

سلام عليك أيها النور ! يا حاملا نعمة المعرفة الينا ،

وشكرا لمن تسبح أيها النور بجلاله ، وتهدينا الى آيات جماله ..

بالنور عرفت ماعرفت ، ولكنى لست أدرى كيف عرفت، قد نقشت السموات والارض على عظمتها فى لوح لايكاد يحس فى ذهنى ، فهذا اليم الذى يعج الآن أمام غرفتى أصبح لاشىء عندى على اتساعه لانه محدود ، وهذه الشمس العظيمة التى بدات تبزغ هذه الساعة قد غدت صغيرة فى عينى لاننى أحطت بها ، وهذه الارض التى أراها كسرير لى قد تلاشت فى نظرى ، اذ وجدتها هى وكل بحورها ذرة طافية فى ذلك اليم الذىلا ساحل له أدركت فى هذه الساعة أن هذه الاشياء كلها مهما عظم حجمها ، فهى كالصفر بالنسبة الى مالا نهاية له ، فعلمت أن ليس فيما أحاط به حسى ما يدفع عن فكرى عطشته

راقنى جمال هذه الكائنات ، ثم حيرنى منها انها كلها مسخرة لنا وما نحن بمسخرين .. فهل نحن على ضعفنا وصغر أحجامنا أكرم وأعظم قدرا منها ؟

تركت حيرتى لحظة ، والتفت الى هذه الشجيرات التى أراها تتزين كعرائس الانس ، وسألتها فلم تجب ولم أفهم حفيفها ، وانثنيت الى هذه اليمامات الراقصة بأعناقها فسألتها فلم تجب ولم أفهم هديلها ، لكننى استأنست بهذه وتلك أكثر من استئناسى بالمتحجرات لاشوق يخالط منها الجنان ، ولا حركة لها الا على يد الانسان ، وطال انسى بهذه الخضر المترنحات ، والورق المتغنيات ، حتى كدت أفقه حديثها ، وافسر تبيانها .. هذه ذكرتنى بمعنى الحياة واعادتنى الى نفسى ، وهى ضالتى المنشودة وبها الهدى الى ما انشده

لم أجد غير نفسى يجيبنى عن نفسى بعد ان ساح حسى

وفكرى فى هذه العوالم المحدودة .. اياها ناجيت ، وكلامها وعيت ، فهى التى حدثتنى أنى لست الا ذرة صغيرة جدا سابحة فى هذا الفلك ، وفى هذه الذرة الصغيرة ذرات كثيرة كل واحدة منها بالنسبة الى الذرة الجامعة هى كواحـد من ألوف الوف الالوف ، وفى كل واحدة توجد الحياة .. ولكن ليست كلها مركزا للحياة لاننا نجد أن الوف ألوف الالوف من هذه اذا فسد وضعها لاتزول الحياة ، ولكن هناك بعض ذرات اذا فسد وضعها تزول الحياة كلها من جميع هذه الذرات التى يتكون من مجموعهـا الجسم ، فهذه الذرات القليلة التى هذا شأنها هى مركز الحياة

الادراك الفكرى

ان أعظم مجالات الحياة فى نظرى هو الادراك الفكرى ، وهو مستقر فى ذرات قليلة لا يحاط بها ..

أدهشنى هذا الموقف الذى وصلت اليه ، وهذا المرأى الذى وقفت عليه ، حيرنى من هذه الذرات أن تسع صور السموات والارض وصور أعمال البشر منذ كانوا الى اليوم، وحيرنى منها ان هذه النتائج العظيمة التى تصدر عنها انما تصدر اذا كانت بوضعها المخصص لها ، وما أسرع زوال هذه النتائج اذا اختل وضع الذرات

رأيت هذا الامر العجيب ، ولكن لا مستقر للفكر عندهذا المرأى اذ قصاراه أنى عرفت شيئا صغيرا جدا يسع أشياء لا تحصى مع أننى انمـا أبغى أن أعرف ما هو ذلك الشىء الصغير مبناه جدا العظيم معناه جدا ؟ ما هو ذلك الشىء الذى بوجوده على حالة معينة ، يكون هذا الجسم متحركا حساسا يحيط بالسموات والارض ، وبتغيره يغدو هذا الجسم ترابا صامتا مستقرا تحت الاقدام ؟ ما هى تلك

الحالة الخاصة ؟ وما هو تغيرها وكيف نظامها ؟ هل هو فى احاطته تلك تابع لهذا النظام أم النظام تابع له ؟ هل هو يحتاج الى هذا النظام بعينه أم يستطيع أن يؤلف نظاما آخر متى تغير نظامه هذا ؟ وان كان تابعا لهذا النظـــام بعينه فهل وجد هذا الشيء ليزول بأسرع من لمح البصر بالنســـبة الى عمر غيره ، على ما يتخلل وجـوده من الاحتجابات ؟

غموض يلفه غموض .. ولكن تلوح خلاله آيات ، اذ قد ملأنا رب الوجود أمثالا ، وأتاحت لنا معرفتنا بالامثال اليقين بأن حقائق الاشياء محتجبة والظاهر انما هو آثارها . فهذا النور الذى يملأ الفضاء لا نعلم كنهه ، وهذه الشمس وما حولها لاندرى كيف قامت ، قصارانا انا عرفنا سبحها فى هذا الفضاء لا تسندها عمد ، ولا يعتريها سكون ، وهى مع ذلك سائرة بنظام ودائرة باحكام ، لاتخرج عن مستقراتها ولا تحيد عن مجاريها ، ولكن ماهو ذلك السر الذى قامت به هذا المقام ؟ سموا شيئا من ذلك بالجاذبية ، فهل هذه التسمية دالة على الكنه والحقيقة ؟

قصور التفكير

ان قصارى ما نعرفه من هذه المركبات انها قابلة للتحلل فاذا حللناها انتهينا الى عناصر قليل عددها لا تتحول ولا تتحلل ، هى الامهات ، ثم هى تنتهى الى أم واحدة لانعرف من أمرها شيئا !

المشاهدة هى أكبر وسائط معارفنا ، ولكن أداة هذه المشاهدة عاجزة عن أن ترينا الاشياء كما هى ، ولو اقتصر الامر عليها لكانت معلوماتنا عن هذه الكائنات خطأ من أولها الى آخرها

هذه الشمس التى نحن وأرضنا فى نظامها الكبير أقل من

حبة رمل فى جبل عظيم ، ليست أمام المشـاهدة الذاتية لكل واحد منا الا كمصباح بسيط يشتعل ساعات وينطفىء ساعات ، وما هى الا بحجم كرة مما يلعب بها اللاعبون

على هذه النسبة من الخطأ نرى كل شيء أقل من حجمه وعلى خلاف وضعه ، فقد نرى واحدا وكأنه متعـدد ، وبسيطاوكأنهمركب ، وساكنا وكأنهمتحرك ، وصغيرا وكأنه كبير ، حتى نصل الى ما هو صغير جدا فلا نراه البتة كما دلتنا التجارب بعد أن اهتدينا للاجهزة العلمية التىتساعد أبصارنا الطبيعية ايما مساعدة .. بهذه الاجهزة استطعنا أن نرى أنواعا من الكائنات الحية الدقيقة ظلت خافية على الابصار دهورا . ولعلنا سنهتدى الى ما يرينا أصغر من تلك الصغائر ، ونحن فى مثل هذه الهدايات العظيمة التى جاءتنا هدية من الخالق عن طريق التجربة ، لانجد مايمنعنا من الظن بأننا مهما استعنا بالاجهزة سنظل فى مشاهداتنا بعيدين عن كشف الاشياء كما هى ، وتبقى أشـياء كثيرة خافية عن أبصارنا وأجهزتنا مهما بلغنا من دقة وقدرة

.فما أكرمك يا عينى على ! .. انت كنت سبب ارشادى الى حقيقتى اذ لم تريها لاننى عرفت بالتجربة أنكمسكينة عاجزة لا ترين كلشيء ، ولاترين شيئا مما ترينه علىوضعه وحقيقته فاضطررت أن أقيس وجودى على وجود غيرى!. لا جرم أن لى حقيقة مستترة عنك وراء وجودى الجسمى الذى تشاهدينه ، كما أن وراء النور حقـائق هى سبب وجوده

ان الحقيقة العظمى التى هى كامنة من وراءالاشياءكلها، وظاهرة عليها كلها ، هىحقيقة خالق الوجود .. حقيقة من لابد لوجودنا من وجوده ، ولابد لتشكلنا وتنوعنا من فيض تخصيصه وجوده ، هى حقيقة من له الحياة الازلية الابدية لان الحياة التى نعرفها عنه صدرت ، وله العلم الازلىالابدى

لان العلوم التى نعهدها من فضـــله اتت ، وله الارادة الازلية الابدية لان الارادة التى نجدها من لدنه أهــديت وله القدرة التامة الشاملة لان القدرة من عنده نشأت .. هى حقيقة من لا مثال له فى كمال وجوده ، وعنه صدرت امثلة الكمال فى الكائنات المرئية .. هى حقيقـــة البارى المصور الذى برأ حقيقة مثال كامل حى سميع بصير مريد وجعل حجابه هذا الهيكل البشرى

الحقيقة العظمى

اصبحت لا ارتاب فى ان الحقيقة العظمى هى التى تهدينا بآثارها وبامداداتها الى كل شىء مما نعرفه ، ولكن لشـــدة ظهورها الذى قد يكون ساطعا مثل الشمس ، ربما تعجز العين عن رؤيتها .. ونحن اذ نطلب معرفة النفس تظهر آياتها العظمى .. فسبحان الله ، من عرف ربه فقد عرف نفسه ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

عرفت الان من أمر نفسى أو روحى انها لا يعرف كنهها ولم يزدنى جهلى بكنهها الا ايمانا بحقيقتها الجليلة المستقلة عن الجسد ، لاننى لم أعرف من أمر كل جزء من أجزاء الجسد الا مشابهته لهذه الجمادات التى أمامى وليس فيما أمامى شىء يجمع فيه ما تجمعه هذه الروح . وقد حاولت كما يفعل بعضهم ، أن أنسب هذه الخواص الى المجموع المركب من هذه المواد ، على نظام خاص ، فلم يسلس له فكرى بل جمح عنه كثيرا لتذكره النظام الشمسى وذهابه الى انه انما قام بما يسمونه الجاذبية ولم تقم هى به . فما نفسنا أو روحنا الا جاذبية النوع وكهربائية الخصائص والمزايا ، وهى مؤلفة الهياكل وناظمتها . ولابدع فى ذلك ، فالكائنات كلها من أصل لا يرى ولم تنفصل عنه ، ولا يكون الاصل تابعـــا للفرع ، ولا ضرورة لتغير الاصل اذا تغير الفرع . ولايصعب

فهم هذا على من عرف كيف يتجسد مالايرى فيصير مما يرى ، وكيف يتلطف ويشف ما يرى فيصير مما لا يرى . الصناعة بهذا ضمينة ، والتجربة فيه هادية أمينة ، ولا يصعب أيضا على من عرف آيات النفس التى تظهر فى بعض الاشخاص لنتعلم منها أن لها شئونا غريبة جدا فوق المعهود منها والمألوف من دخولها فى قيد الحس ، سبحان الله كم لها من انطلاق منه يظهر معه أن لا حاجة لها بهذه الاجهزة العضلية والعظمية والعصبية

لقد شاهدنا ذلك كثيرا .. وشاهد مثلنا خلق لايحصون. والباحثون والمحققون شاهدوا أيضا أو نقل اليهم ثقات كثيرون مجموعهم يدفع عن نفوسهم الريب ، وما علمنا انهم وجدوا لهذا الامتياز الفائق اسبابا جلية ! غاية ما صنعوا انهم وضعوا لبعض هذه الامور اسماء وظن القاصرون أن هذه الاسماء تحل الاشكال ، وتحكي حقيقة الحال !

وسمعنا سماعا لا يستطيع الريب معه البقاء ، أن اشخاصا يشفون أمراضا معضلة بغير علاج ، ولم يقل لنا علماء الابدان فى تعليل هذا الامر الا انه شفاء بالوهم .. فيا عجبا ما هو هذا الوهم الشافى ولماذا لايشفى بالوهم كل شخص

حالة المنوم تنويما مغناطيسيا هى من الادلة الصريحة فى هذا الباب على شدة غرابة أمر هذا الموجود الصغير الكبير واستعداده لخرق الحجب الكثيفة ، والتحرر من القيود الحسية ، وقيامه بالاعمال العظيمة ، من غير حركة يبديها أو واسطة يأتيها !

هذا حديث نفسى ، وخلاصة ما ظهر لى أن الروح خلق مستقل ذو مظاهر فائقة ، واحتجابات محيرة .. وهو

أقسام كثيرة ، نصيبنا منه عظيم ، وارتقاء نوعنا لولاه عديم ، هو الحى السميع البصير المريد المستعد للظهور والاجتنان المصنوع آية كبرى دالة على جامع الاكوان ، وظهر لى أن خصائص الروح الشوق ، ولو قلت ان الروح هو الخلق ذو الشوق لما وجدت هذا غريبا فى تعريفها . ولكل روح شوق يناسبها ، وعلى نسبة شوقها تكون رتبتها ومنزلتها فى عالمها الذى هى منه ، وفى عالم المثال والعيان الذى دفعها اليه شوقها الى الظهور

الشوق الرؤية الخالق

كانت روح هذا السيد بعل سيدتنا «خديجة» من اسمى الارواح ، وكان شوقها أزكى شوق وأقدسه . كانت عظيمة الشوق الى رؤية خالقها ، ولكن هل الخالق عز وجل يرى؟ لعلها حارت زمنا فى هذا الامر ؟ ولعلها قالت لو كان يرى لكان محدودا وكيف يدخل فى حد من برأ الحدود ؟ ولعلها عادت الى زيادة التبصر ، فقالت هل الرؤية وقف على هذه الباصرة ؟ وهل يشترط ان يكون المرئى متشخصا ؟ أليس القصد من الرؤية العلم ؟ ألا يمكن العلم بالفاطر مع أنه غير متشخص !

هذا ما كانت تحوم حوله هذه الروح العلوية التى كان مظهرها وبيتها الصورى فى بيت « خديجة » ومطافها ومطارها ملكوت الحق ، ملكوت الوجود الاعلى

ولعلها يئست من ان تجد فيما حولها مايروى أوارها من معرفة خالقها الذى اشتد شوقها اليه ، بل لعلها غلب عليها ذلك الشوق حتى أصبحت زاهدة فى كل رؤية وكل سمع لانها تريد أن ترى وتسمع الذى اليه طارت شوقا ، ولذلك رأينا « محمدا » صلى الله عليه وسلم قد حببت اليه الخلوة والانفراد ، ولا سيما اذ شارف الاربعين

من عمره ، وكان لغار «حراء» الحظ من هذه الروح الحائمة على حبيبها وطبيب شوقها

من ذا الذى يعلم غير الله ما كان يقوله هذا المنقطع فى ذلك الغار ؟ ولكن يصح لنا أن نظن بأنه كان يذرف الدموع ويناجي المقصود المطلوب بقوله : رباه ! رباه ! كيف الوصول الى حضرتك « كيف السبيل الى مشاهدة تجلياتك ؟ اليك أيها المولى من مزيد حبى : قيامى وقعودى ، وركوعى وسجودى ، ومن مزيد شوقى : ذرف دموعى ، وفرط ولوعى ، رحماك رحماك ياربى ! كبد تذوب وعين تسيل ، وفكر يتدله ، وأنت أنت مطلوبى ، وأنت أنت ذو الكرم والجود !.

على هذا المثال كانت حاله ، وهذا هو العمل الروحى الذى شغل به باله (١) وقد فهم القريبون من فهم الروح مدى فائدة هذه النجوى القدسية ، وأما البعيدون عن هذا الشوق فيعجبون وينكرون ، وليتهم يتذكرون محن الناس وتدلهاتهم بهذه المتغيرات من صور وأشكال لاتتوقف الحياة عليها ، ولا يجدون الطمأنينة لديها ، هذه المحن والتدلهات أدعى للعجب لعمر الحق لو كانوا يعقلون . وأما ابتعاد روح المحسوسات فى سبيل الاقتراب من حضرة من لا تدركه الابصار فسعى وراء مبتغى جليل

العمل الذى فيه لذة لا ضرر على الغير فيها ، لا ينكره عقل ، ولأرباب الاعمال الروحية لذات لايستبدلون بها كل لذات المفتونين بالمحسوسات فعسى أن يتذكر العقل المتحرر هذا المعنى ، فلا يصعب عليه أن يفهم أقل حكمة فى الاعمال الروحية .. وهى لذة أربابها وانتعاشهم وتفتح

---

(١) ويفهم من القران انه كان يتفكر فى ضلال الناس بالشرك والفساد فى الارض ويطلب من الله الهداية الى المخرج من ذلك (ووجدك ضالا فهدى)

بصائرهم لرؤية المعالى كما هى ، فلا يحزنهم شيء بعد فى سبيل الظفر بها ، ولا تقف هممهم امام تضحية فى طريقها

كانت السيدة « خديجة » سديدة الفهم عظيمة الثقة ببركات هذا العمل الروحى فساعدت عليه ولم تلم صاحبه ولا عاتبته .. كانت عظيمة الايمان بالقوة العظمى ، والحقيقةالكبرى ، فلم تر بأسا ، بل لم تر الا الخير ،بتوجه وجه زوجها الكريم تلقاء سوانح الامدادات الفائضة من لدن ذلك الملكوت الذى لاحد له . كانت قد عرفت ان هذا الغار فى «حراء» المجرد من كل مشتهى حسى ، كان حريا ان يكون ملاذا لهذا الانسان الكريم الذى يحمل قلبا ، فرغ من كل شيء سوى الوله بالمعانى القدسية ، والشوق الى الحضرة الربانية ، فكانت تبارك هذا الغار وتسال الله ان يملأه بركات ، وقد أجاب الله تعالى بكرمه سؤلها وكتب «حراء» فى الصف الاول بين الاماكن التى تتوج بتمجيد الناس وتقديرهم وتكريمهم .. وكم عبرت قرائح الشعراء عن تقديرهم وتكريمهم لهذا الغار أو لفيض النور الذى فاق بدره البدور . قال قائل منهم :

سلام عليك حراء الشهير امطلع ذاك الضياء العظيم
سلام فؤاد ذكور شكور بقدر الذى قد صبحت عليم

***

لانت يتيمة عقد الوطن ففيك اضاء السراج المنير
بذكراك يلقى الفؤاد السكن فذكراك ذكرى عطاء كبير

الفصل السابع عشر

بدء الروح

الحادثة العظمى

فى « حراء » حدثت الحادثة الاولى من التاريخ الجديد الذى سنرى فيه بعل السيدة « خديجة » فائقا فواقا عظيما مدهشا .. وهذه الحادثة العظمى التى هى بداية هذا التاريخ هى ان روح محمد (صلى الله عليه وسلم) اجتمع هناك فى « حراء » بروح غير بشرى ، وأبلغه هذا الروح الغريب رسالة شأنها عظيم

لقد ذكرنا فى الفصل السابق من أمر الروح ما فيه الكفاية ، ذكرنا فيه ما لعل القارىء ينشرح به صدره الى القول بوجود موجودات ذات حياة على انواع شتى ، ولا يشترط فى بعضها أن تكون لها أشباح كالاشباح البشرية . وهذا قد سبقنا البشر كلهم الى القول به ، ولم يشذ عنه الا قليل .. وهم كلهم قائلون ان بين الروح الذى هو انسان وبين الارواح الاخرى اتصالات ، فأنا كاتب هذه السطور لست بمبتدع خبرا ليس له مثال بذكر هذه الحادثة التى قد يراها غريبة من يحبون التباعد عن الروحيات ، ومن يؤمنون بها أحيانا ويكفرون بها أحيانا من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون

هذه حادثة عظيمة فى السيرة التى نحن آخذون فى الحديث عنها ، ونحن مقتنعون بوقوعها ، ولا يدعونا الى استماع هواجس المنكر الا الحرص على القيام بحسن المرافقة .. فان كان المنكر ينكر عالم الروح من حيث هو

فالحق أن حيلتنا البيانية معـــه قليلة ، ولكنى أظن أن حديثنا عن هذه الناحية فى الفصل السابق قد تجديه .. وان كان ينكر العـلاقة بين الروح الذى هو الانســـان وبين الارواح الاخرى ، فليس لنا مانتوسط به الى ابلاغه هذا المشهد غير نفسه ، فليرجع اليها كثيرا وليدقق فى حديثها جيدا . وأن كان ينكر صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) فى حديثه بهذه الحادثة مع أنه لا ينـكر وقوع مثلها لغيره فالخطب فى مناقشته سهل

كان « محمد » صلى الله عليه وسلم صادقا شـــديد الحرص على الصدق واشتهر منذ حداثته بلقب «الامين» قد عرفنا صدقه كما عرف النـاس شجـــاعة أناس من الشجعان ، وكرم أفراد من الكرماء ، وعلم جمـــاعة من العلماء ، وكما عرف بنو اسرائيل صـــدق الانسان موسى الذى كان قد سمع الكلام الالهى ، وظهـرت له الارواح العلوية ، وكما عرف النصارى صدق الانســـان عيسى الذى كان روحا من الله ، وكما عرفوا صدق تـلاميذه وأنصاره الذين حكوا حكايته وبثوا بشارته

هذا الصادق الامين رجـــع ذات يوم من « حراء » شاحب اللون ، مرتجف الصدر .. يعلوه اضطراب الوجل الحائر ، وخشوع المؤمن الصـــابر .. فما وقـــع نظر السيدة « خديجة » عليه حتى عرفت أن أمرا عظيمـــا قد الم به .. فخفق لاول وهلة قلبها ، وســـائلت بسرعة البرق نفسها : ماذا أصاب حبيبى ؟ ماذا الم بذلك القلب الذى لا تفزعه الرجال ، ولا تجزعه الاهوال ؟ ما بال ذلك الصدر المبسوط تثنيه الرجفات ، ما بال ذلك الطـرف القرير تكاد تبادره العبرات ؟ رباه ماذا أصاب حبيبى ؟

ــ قل لى أيها الحبيب ماذا أصابك ؟ حنانيك قل لى ! قل لى !

ـ دثرونى دثرونى
ـ لا صبر لى عن معرفة الامر الان فقصه على
ـ بينا أنا فى « حراء » اذ جاءنى روح فقال لى اقرأ قلت له « ما أنا بقارىء » فأخذنى وغطنى غطة (*) وقال لى « اقرأ » قلت « ما أنا بقارىء » . قال لى : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأوربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم)
ـ ألم تسأله من أنت ، ومن جاء بك ، وماذا تريد منى؟
ـ سمعته يقول أنا جبريل جئت أبلغك رسالة ربك

هذه هى الاولى من الكلمات التى سمعها محمد (صلى الله عليه وسلم) من ذلك الروح الذى ظهر له باسم جبريل وهو من النوع المسمى ملائكة ، والآن قد فتح لصاحب « حراء » بابان : باب حيرة جديدة وباب هدى ، فأما الحيرة فظاهرة يكاد يراها كل من سمع هذه الحادثة فان ظهور الارواح غير البشرية لافراد النوع الانسانى ليس من المألوف ، فاذا صادف أحد الافراد شيئا من هذا القبيل لا يقوى طبعه البشرى لاول وهلة على تحمل مواجهته والانس به . كل واحد منا يعرف هذا عندما تفاجئه أمور لم تكن تخطر على باله ، مع انها من الامور التى تقع كثيرا .. فكيف الحال بالامور التى تحدث نادرا الى حد أن بعض الناس لا يصدق وقوعها

انه ليخيل الينا ان صاحب « حراء » قد دهش لما سمع صوت ذلك الروح يناديه « اقرأ » .. يخيل الينا انه قال فى نفسه : رباه ما هذا الذى أسمع ؟ رباه ليس ههنا من بشر فهل يتكلم غير البشر ؟ رباه ماذا يراد بى ؟ اننى أعلم انى فى يقظة لا فى منام ، واننى أسمع كلاما لا ريب

(*) ضمنى بشدة وضغط

فيــــه ، وأننى أحس بقوة تؤثر فى ، ولا عهـــد لى بمثل هـذا من قبل ! .. رباه أن هذا أمر يدهش ، فكن اللهم عونى ، وخذ بيدى ، وثبت فؤادى ، وقونى على مواجهته اذا عاودنى ..

نعم انه ليخيل الينا أن المفــاجاة بذلك الروح جعلته يناجى نفسه ويناجى ربه بمثل هــــذه الكلمات وهــو ذاهب الى خديجة ، فلما لقيها قال « دثرونى دثرونى » واختصر لها الحديث اختصارا

دثرته « خديجة » وجعل العرق يتصبب منه . وقد عاوده الروح بعـد ذلك . وقال له (يا ايها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر)

ان من يفاجأ بمثل هذا جدير بالحيرة ، وهذا ما أشرنا اليه هنا ، ولكن مع هذه المفاجأة قد انس باسم ربه ، فكان هذا الاسم الجليل حريا أن يكون دواء شـافيـــا من تلك الحيرة، وكافيا أن يفتح باب الهدى والطمأنينة

الروح جبريل

الروح « جبريل » يقول له أنا من عنـــد ربك ، جئت أبلغك رسالته ، جئت ألقى عليك وحيا من عنــده ، وفى هذا الوحى الذى جاءه به مفتاح لتلك المغالق التى أشرنا اليها آنفا التى كانت تقف أمامه دائما .. فى هذا الوحى مبدأ ارشاد وتعريف له بربه خالق الانسان .. فى هــذا الوحى اهابة بفكره لتناول معارف عليا ، وتعاليم عظمى ، فى حقائق الوجود

كانت الحيرة تردفها الحيرة . واما هــذه الحيرة فان الهدى يعقبها لان العناية الالهية ظهرت أتم ظهور ، والعطاء

الربانى سلم جليا لتلك اليد التى كانت مرفوعة فى «حراء» تلقاء السماء

وكان أول معراج عرج بصاحب هذه اليد عليه الى تلك الحضرات القدسية هو اعلامه علم اليقين بأرواح عالية تتكلم ، هى غير الارواح الانسانية الحالة فى هذه الصور البشرية .. وذلك بجعل واحد من هذه الارواح واسطة بينه وبين مصدر الحياة والعلم والارادة

هذه عناية كبيرة جدا لم يرو التاريخ وقوع مثلها الا لقليلين : منهم النبى ابراهيم ، والنبى موسى ، والنبى عيسى (عليهم السلام)

يقول له الروح « جبريل » (اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق) فهذا القول العربى الجليل يصور له من النشأة المادية فى خلق الانسان صورة يتجلى فيها عظيم قدرة البارىء المصور ، وعظيم ضعف هذه الصور البشرية لولا روح الله الذى يسندها ويؤيدها

يقول له الروح « جبريل » (اقرأ وربك الاكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم » وهذا القول المجيد يصور له من النشأة الروحية فى كون الانسان صورة يدهش الالباب فيها عظيم صنع الله فى ترقية الانسان بواسطة قصبة لا يؤبه لها لدى النظر .. نعم بواسطة قصبة ـ نعنى بها القلم ـ كان الرقى العظيم العقلى لهذا الكائن الذى خصت العناية الازلية نوعه بمزيد من الخصائص

وغريب فى الامر ان المواجه بهذا الخطاب لم يكن من ارباب القلم ، بل كان اميا لا يعرف القراءة ولا الخط بالقلم ، فما معنى ان يكون اول وحى اليه هو الامر بالقراءة والتنويه بالقلم

لأبدع .. لأبدع .. أن معنى ذلك هو تكرم الله عز وجل على البشر باعطائهم آية أخرى يفقهون بها انه قادر أن يعلم من لدنه بغير ماعرفوا من الوسائط من شاء ماشاء اذا شاء . . وأن يجعل غير القارىء قارئا ، ولكن يقرئه بالروح صحفا ربانية قد أنزلها الله على قلوب البشر بأساليب شتى أجلها واعلاها هذا الاسلوب

***

ما أجل هذه العناية وما أجدر « خديجة » بالسرور الذى ليس فوقه سرور .. ولكن هل عرفت هذا السر الربانى تماما ؟ نعم كان قلبها القوى خليقا الا يفزع أمام هذه الحادثة الغريبة فى ظاهرها ، بيد انها كانت محتاجة ان تطرق تفسير هذا السر وهذا المظهر الجديد من ابوابه

الفصل الثامن عشر

الأدلة العقلية

رسالة ربانية

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قوى القلب جدا تدل على ذلك سيرته كلها من أولها الى آخرها .. ولكن مهما قوي قلب أمام الحوادث المعتاد وقوع أمثالها بين الناس فلا يدل ذلك على انه لا تأخذه روعة أمام صوت غير بشرى ، يهيب به الى أمر غير حسى . لذلك لا ينبغى أن نستغرب الروعة التى أخذت لاول وهلة ذلك القلب القوى العظيم ، فانه دعى من لدن الحق بواسطة الروح الى وظيفة تنوء بحملها مئات القلوب ، اذ يجب ـ بحسب حدودها ـ قلب السنن ..

اى لعمر الحق لا غرابة فى روعة تنقض الظهر ، اذا حدثت لمن نودى هذا النداء بهذا الامر ، وبديهى احتياج هذا المأمور الى شرح الصدر ، والتأييد ورفع القدر ، ولا بدع اذا ضمن له كل تأييد من اراد أن يكون قلبه محلا لنزول وحيه الاعلى

نعم ألمت الروعة بقلب صاحب « حراء » لما نزل عليه الروح بما نزل به عليه ، وقد صرح لخديجة بذلك ، وقال لها « لقد خشيت على نفسى » ولكن التأييد محيط به ، والايناس يشيع من حوله .. وناهيك أن فى منزله الذى اليه يثوب روحا شريفا كأن الله قد أوجده خاصة لتأييده وشرح صدره باديء بدء هو روح السيدة « خديجة » لم تكن هذه السيدة أقوى منة من بعلها الكريم ، ولكن هو واجهته روائع الجلال مواجهة ، فأخذته بين حيرة

وشوق وخشية عجز عن القيام بالوظيفة . واما هى فسمعت بالامر سماعا ، ووجدت للتفكير فيه مجالا

ولو فوجئت امراة بما فوجئت به هذه السيدة من هذا النبأ العظيم ، وكان ينقصها ما حلاها الله به من الفطنة وبعد الادراك وسلامة الفطرة وما اعطاها من قوة التمييز فى وزن الامور ومعرفة مقاييسها لتراخت مفاصلها ووهت قوتها أمام هذا الحادث الغريب . ولكن العناية الازلية التى لها اليد فى اظهار هذا المظهر الاعلى قد أتمت العمل من أوله الى آخره ونسقته على احسن منوال ، فلا عجب فيما رأيناه فى هذه السيدة من الصفات التى تساعد على استقبال أمور عظيمة لأنها خلقت لتكون زوجة لذلك الرجل الذى سيصادف أعظم الأمور ويأتى بها

أمل وخوف

فكرت « خديجة » فى هذا الامر ، واخذت تسائل نفسهابنفسها ، وللامل ههناوجه وللخوف وجه .. فالامل يقول لها ان الأمين لصادق وان روحه لزكية قوية لا سلطان لروح الشر عليها ، والروح الذى جاءه انما بلغه باسم ربه أنه اصطفاه رسولا والله على هذا قدير ، وباختصاص من شاء بما شاء جدير ، وأى شىء يمنع رب العالمين اذا أراد أن يتكرم على هذا البيت بانزال وحيه فيه ، فيغدو بعد الان مشرقا لا تضاهيه المشارق ، يفيض النور على القبائل والشعوب .. انت اللهم على هذا قادر اذا أردت ولا مانع لما أعطيت ! والوجل يقول لها ما هذه الحال التى أخذت حبيب قلبى فراعته ، انى لاخشى أن يكون أمرا جسمانيا بحتا كما قد يعرض لبعض الافراد .. انى لأخاف أن يصبح هدفا لرمى الاضداد . ولكن سرعان ما غلب الامل على الرجل ، والمنة على الضعف .. وسرعان

ما تبدت لها وجوه الادلة على أن ما أتى بعلها الكريم هو بشير خير عظيم ، ومقدمة فلاح عميم .. وكانت أدلتهاعلى ذلك عقلية ، ونقلية .. تقدمت العقلية منها على الثانية

حينما قال « محمد » (صلى الله عليه وسلم) لخديجة : « لقد خشيت على نفسي » قالت له : « كلا والله مايخزيك الله أبدا .. انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقـرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الامانة »

ان هذا الكلام الذى صدر منها على الفور هو نتيجة معرفة سابقة .. هو نتيجة تفكير حكيم قد أعطى الثمرة سريعا . هذا الكلام الوجيز يؤلف استدلالا عقليا من أعظم الاستدلالات ، فانه أتى ساذجا صريحا لاغبار عليه من التكلف ، ولا شيء منه لا يستسيغه الذهن ، هو قيـاس باهر النتيجة ، مطوى بعض الحـواشى ، ومن أبدع الاقيسة نظما ، ومن اجملها وقعا .. بيد أن الافهام كدأبها فى التفاوت ، وعلى سنتها فى التخالف ، لا يستغنى كثير منها عن تشريح هذا القياس .. فحينئذ يلوح لها انطواء الفوائد الفزيرة ، فى هذه الكلمات الوجيزة .. وتعلم من قريب ان الحكمة بيد الله يؤتيها لمن يشاء

(١)

يخرج المتأمل فى حديث هذه السيدة بأن النوع الانسانى محل لعظيم تجليات رب الانواع كلها . ولذلك يحب كل ما يؤدى الى تسامى هذا النوع ويخلق الاسباب لذلك ويأخذ بيدها لتتغلب على ما أظهره بحكمته التى لا نعلمها من أضدادها

(٢)

ويخرج من كلامها بأن الله عز وجل مطلع على أعمالنـا

ومجاز عليها ، وانه يحب منااعمالا ويكره أخرى ، وان الذي يحبه منا على حسب تفكيرها هو الاستقامة ومساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة الضعفاء

(٣)

ويخرج منه أن من يفعل الخير لايأتيه الا الخير . والخير الذى نعبر عنه بهذا اللفظ قد جاء في عبارة السيدة بتفصيل أعمال كلها من باب مساعدة الانسان للانسان ، فهذه المساعدة فى نظرها كل خير أو هى كل الخير فهل يكافىء الله فاعل الخير بغير الخير ؟ ان هذا على حسب تفكيرها لا يمكن أن يحدث

(٤)

ونتيجة قياسها أو اقيستها أن هذه رسالة ربانية فيها الخير لا الضير ، وأن الله عز وجل سيتفضل بتاييد هذا المامور فى حمل هذه الامانة على ثقلها وصعوبة تاديتها لقوم ينكرونها ولا يعرفونها

حكمة السيدة خديجة

ان محيط جلال الله الذى ليس له حد ، ولا تبلغ العبارات ــ مهما كانت بليغة ــ شيئا من حقيقة التعريف به حق التعريف .. وانما هى لتستعين النفس بها على بث حبها به له عز وجل وتمجيدها اياه وليزداد شوق النفوس الى الكمال ، وتعبدها لذلك الجلال . لقد عزت صفات رب الكون عن أن ترسمها اللغات ، كما عزت ذاته عن أن تحدها الجهات ، وأن حقيقته لهى فوق المجاز والاستعارات

لكن الانسان خلق عظيم الشوق الى تصور ربه ، وغير صبور عن الاشارة الى وصفه ، وليت شعرى انى يبلغ الواصفون صفة من كنه محتجب فى خزائن الغيب الاعظم ؟

لقد نفد صبر الانسان فى هذا الامر من قديم الازمان ، واقدم على وصف ربه فلم يجــد غير الاستعارة حيلة فوصفه بما يتصف به الانسان نفسه ، ولذلك وقع تناقض كثير فى أوصاف الواصفين لان رب العــالمين غير حادث ولا تشبهه الحوادث تعالى عن ذلك علوا كبيرا ..

ولقد ظهر بين البشر رجال منهــم ، أتتهــم الارواح وكلمتهم من عند الله فأيد كلام الله بواسطة الروح مادرج عليه الناس من الاستعارة ، فأصبح هذا الامر عاما لافرق بين الناس فيه الا فيما اختلفت عباراتهم

والافكار المستقلة تؤدى الى قبول هذا الاسلوب أيضا لان التفاهم فى هذه الابواب لا يســـتغنى عنه ، ولا يمكن تحقيقه الا بالعبارة

الى الله سبحانه يرجع كل شىء ، فهو انشــأ الانسان على هذا المثال ، وهو علمه ما قد عرفه الى الآن ، وخلاصة ما عرفناه من ظواهر التكوين أن البارىء المصور عز وجل لما أراد أن يكون هذا الانسان مميزا عليما ، اظهر الاشياء أمامه مبنية على التضاد ، وجعل تمييز الاشياء باضدادها، وأودع فيه ضدين جعل عليهما مدار سيرته كلها فى حياته هما الاستحسان وضده ، وجعل مع الاستحسان الشوق والحب ، ومع ضده النفرة والبغض . واقتضى ناموس التضاد الذى عليه مدار تمييز الانسان أن يختلف افراد هذا النوع فى الاستحسان وضده ، فكثرت أســـباب خلافهم فنشأ بينهم الضدان ، المسمى أحدهما خيرا والاخر شرا . واحتاجوا الى جواذب تجذب الخير ودوافع تدفع الشر ، فرجعت كل معارفهم الى معرفة هــذه الجواذب والدوافع . ومن نما منهم علمه بها وسما عمله على موجب هذا العلم سموه حكيما

وهل يجوز أن يكون بعض بنى البشر حكماء والبـــارى

غير حـكيم ؟ كلا ، ثم كلا .. بل ليست حكمة الانسـان الا من الله ، والله هو العليم الحكيم

نعم ، بيد أننا نفقه معنى حكمة الانسان لاننا نميزها بضدها وليس لعلم الله وعمله وارادته جل جلاله من ضد

انظر تجدنا نعرف الاسرار فى كل دقيقة من الدقائق التى يؤلف الانسان منها شكلا من الاشكال ، لان الانسان انما يصنع مايصنع للاحتياج والاستفادة ، وأما الذى أراد ظهور الاشياء بهذا التنوع ، فلم يرد هذا لحاجة أو جدوى تعود عليه . ثم انظر تجد أننا نسمى ما يصنعه الانسان لغير فائدة عبثا ، ولانسمى عمل المستغنى عن الفائدة عبثا .. مع أننا لا نرى فائدة فى عمله لاله لاستغنائه وتقدسه، ولا للمصنوع من معدن ونبات وحيوان وغيرها

حكمة الله فى كل شىء

فاذا أمعنت النظر يظهر لك أننا لا نستطيع أن نعـلم ما هى حكمة الله فى ظهور الاشياء على ما هى عليه ، ولكن نقص هذا العلم لم يمنعنا عن القول بأن له حكمة فى كل شىء ، وتعلم من هذا وضوح عجز العبارة فى كشف خفايا هذه الحقائق مع عدم الاستغناء عنها

ثم اذا أعدنا النظر الى علاقة هذه الظواهر بالانسان ، يبدو لنا أمر يحمل على مزيد التفكير والتذكر ، ذلك أن كل شىء منها يفيد الانسـان حكمة اذا تصـدى لقراءته على صفحات الاعتبار ، أن الانسان ليرى اذا تأمل نظاما بديعا فى هذه الظواهر ويرى له نصيبا فى كل شىء منها

فمن هذا الوجه ، قد يصح لنا القول بأن من جملة حكم الله تعالى فى هذه الظواهر تجلى آلائه وكرمه بجعل علاقة النفع والانتفاع بين هذه الانواع والصنوف التى لا تحصى وبين هذا الكائن الصغير الجرم

هذه العلاقة ظاهرة يكاد يراها كل من تأمل فى استفادتنا معشر البشر من كل هذه الظواهر .. أما محبو الحكمة ، فيعمقون نظرهم ويتلمسون الاسرار فى تشكيلاتها وتألفاتها على هذه الوجوه والاوضاع . ولو فرضنا انها جاءت على غير هذه الوجوه لتوجهت أنظارهم الى استجلاء فوائدها أيضا لانها كلهـا من الله .. وما من الله لا يكون عبثا بل يستفيد منه الانسان حكمة أو شيئا اخر ، فكأن الانسان أكرم من كل هذه الظواهر ، وكأنه هو المقصود بأن تنكشف له الحكم والاسرار الربانية

هذا هو الاساس الذى أقيمت عليـــــه قواعد حكمة الانسان ، وهو مبدأ سيره لمعرفة حكمة الله الحكيم الاعلى جل جلاله وتقدست أسماؤه

حكمة الانسان فى الحقيقة هدية ربانية يختص بهـا الخالق الذى اراد ان يكون الانسان سليم الفطرة ، حاد الفكرة ، فهو يكون كثير الذكر ، قليل النسيان ، والكائنات كلها عبر ، وتعليم لمن تذكر . وليست حكمة الانسان تلقينا يقـدم لكل امرىء ، ويؤتاه كل أحد فى كتاب يكتب ، أو خطاب يخطب ، لكن مع أنه لم يكن أحد مستعدا أن ينال الحكمة ، نجد الحكمة ذات بركة شاملة تزور بيـــوت غير الحكماء أيضا فتملؤها فوائد كثيرة من غير أن يشعر اربابها بحركاتها وحركات حاملى لوائها

كانت السيدة « خديجة » ذات نصيب من هذه الهبة العليا الربانية هبة الحكمة ، وقد رأى القارىء آنفا شيئا من حكمتهـا وجميل تفكـيرها وتصرفها ، ونحن هنـــا نوضح ذلك ، ونزيد المقام حظا من ذلك الجمال :

(١) فهى رأت ان النوع الانسانى محل لعظيم تجليات رب الانواع وانه سبحانه يحب كل ما يؤدى الى تسامى هذا النوع . وحق ما رأت ، فان اظهار هـــذا النوع على

هذا المثال هو أوضح ضياء يرى به المدلج أن الله سبحانه أحب أن يعرف فاقتضت ارادته ظهور هذا النوع مستعدا للمعرفة وعظيم الشوق اليها . والانسان فى ظهـــوره جسما وروحا وتفاوت أفراده بالارواح تفاوتا عظيما قد أصبح دون ريب من اكبر الآيات فى هذا الباب على ذلك الشأن العظيم من المراد الالهى ، وأضحى مجمع أسرار وكنز حقائق لايمارى فيهاالامن جعل النسيان بينهم وبين الملكوت الاعظم حجبا ..

العوامل المساعدة للرقى

ومن المشاهد ان البارىء عز وجل يخلق الاســـباب المساعدة على ترقى هذا النوع ويأخذ بيدها لتتغلب على ما اظهره بحكمته التى لا نعلمها من اضدادها . اننا قد شاهدنا ماجرى ويجرى من الدفاع والجدال بين جواذب الانســان الى ظلمـــه الجـهل وجواذبه الى مشـــارق العلم ، فوجدنا الغلبة للثانية عـلى الاولى .. وحسبك ان الانسان بعد أن كان كسائر الحيوان لايفقه غير حاجتــه الى طعام يصد به الم جوعه ، ومـــاء يرد به الم عطشه ، أصبح يعرف الغوامض من أمور الـكواكب ، ويحسب من حركاتها ماهو اقل من لمح البصر حتى تسنى له بذلك أن يعرف متى يكون الخسوف والكسوف ، دع عنك معرفته بما فوق الثرى وما تحته ، ودع عنك توصله الى استخدام الروح السارى فى هذه الظواهر الدنيا ، نعنى به الكهرباء ودع عنك استفادته من « الارواح» العليا ونقله بواسطتها الانباء البعيدة والمحجوبة

(٢) ورأت السيدة « خديجة » أن البارىء عز وجل مطلع على أعمالنا ، ومجاز عليها ، وانه يحب منا أعمالا ويكره أخـــرى .. ومن تذكر ما قلنـــا فى مقـــدمة هـــذا الفصل

يعرف أن مثل هذا التعبير يقصد به تصوير معان من كمال الله تعالى ، فهو سبحانه محيط بالكائنات كلهـــا ، وقد جعل لها سننا من جملتها أن جعل أفراد النوع الانسانى محتاجين الى ارشاد بعضهم لبعض ومعاونة بعضهم لبعض ولا تنس أن الله سبحانه قضى بالتضاد ليميز به الانسان فمن قرب من سننه محبوب عنده ، ومن بعد عنها مكروه لديه . هيهات ! هيهات أن نعرف ما معنى محبته سبحانه وكراهيته لانه سبحانه لا ضد له ، ولكن هـــذا العجز لا يثنينا عن الاعتقاد بأنه يحب ماينفعنا ويكره ما يضرنا كما هو مقتضى حكمته ورحمته بحسب ايماننا ، وانما خلق الضار والمكروه مع النافع والمحبوب ليتم ناموس التضاد الذى قضت به حكمته

ومن أمن النظر فى كلّ ماسلف هنا ، يتبين له أن فى مقدمة المحبوب لديه مساعدة بعضنا البعض ولا سيمـا مساعدة القوى للضعيف . ومن يرزق هذا الروح لا يكون الا سليم الفطرة ، طيب القلب ، لا يتبرم لنقص حظ ، ولا يتعالى بزيادة نصيب ، فلا يكون الا محبوبا تأتيه المساعدة من قبل عالم الغيب وعالم الحس والشهادة

(٣) على هذا ترى هذه السيدة أن الله سبحانه لايكافىء فاعل الخير بغير الخير فى هذه الحياة ، وأهــــل الديانات يقولون هذا القول باعتبار ما يصادف المرء فى الحياة الثانية التى انما تكون لنيل الجزاء ، واما فى هذه الحياة فمنهم من يذهب هذا المذهب الذى ذكرناه ومنهم من يقول ان فاعل الخير يبتلى فى هذه الحياة بالشرور (١)

ونحن لا ينبغى أن ننسى أن مذهب هذه السيدة مشوق لفعل الخير لان المجازاة عليه فى هذه الحياة والحياة الاخرى

(١) الصواب انه قد يبتلى بها ، ولا يكون فعله للخير سببا مباشرا لها

مما يزيد محبيه حبا فيه . واليه أذهب ، وبه أثق ، ولا عبرة بمن يشذ عن قاعدة هذا المذهب ممن ظاهرهم الخير والله أعلم بسرائرهم

هذا شيء من التفصيل لما جاء مجملا فى حكمة السيدة « خديجة » ولم نرغب الزيادة على هذا المقدار خشية سأم القارىء ، ومنه يعلم أن هذه الاستدلالات العقلية كافية لمن كان له قلب سليم كقلب سيدتنا أن يعرف معرفة تدفع الريب أن الروح الذى وافى معدن الخير محمدا « صلى الله عليه وسلم » أن هو الا روح خير وسلام ، وفلاح ونعمة واكرام ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

الفصل التاسع عشر

الدليل النقلي

ادلة قاطعة

اقتداء الناس بعضهم ببعض أمر قد ألفته طباعهم كثيرا .. وربما كان غريزة من غرائزهم ، ومن مادة تصورهم ، اذ رأيناه عريقا فى مرافقة الاجيال ، والتنقل فى الانسال ، وموغلا فى الرسوخ والاستقرار ، والدوام والاستمرار ، لا يزحزحهم شيء عنه ، ولا يفصل بينهم وبينه فاصل

هذا الاقتداء نفع البشر كثيرا ، واضر بهم كثيرا ، فاما نفعه اياهم فلأن الاكبر سنا ، والاكثر فهما ، والاشد قوة، والاغزر تجربة ، يجعلون المقتدين بهم يبتدئون من حيث انتهوا هم ، ويمهدون لهم مالا يستطيعون أن يمهدوا لانفسهم .. ولو بقى الطفل والغنى والضعيف والغر خالين من طبيعة الاقتداء لراحت أكثر التجارب والاختراعات والتأملات والاعمال العظيمة سدى . ولولا الاقتداء لما تعددت الاعمال والصناعات ، ولا كثرت البدائع ، ولا ارتقى التمدن ، ولا نما العمران ، ولا سما النظام . وأما اضراره بهم فلأنه ساق أحيانا الى الاقتداء بالجاهلين والمفسدين ، ووقف أحيانا بأقوام مع ما سن لهم أسلافهم وقفة الصخور وجعلهم يحرمون ما يأتى على أيدى الحكماء من الهدى متى خالف ماعرفوا من قبل ، وأن أصبح ماعرفوه منكرا لدى أهل زمانهم أجمعين

البحث عن نفعه واضراره ، ووضع الموازين للدرجات فيه ، لا قرابة بينه وبين موضوعنا ، ولكن اتخاذ الناس بعض كلام الآخرين من جملة الادلة هو الذى حملنا أن

نتحدث عن وصف عراقته ، وبيان أن بعضه نافع ، كما وقع للسيدة « خديجة »

ورقة بن نوافل

كان للسيدة « خديجة » ابن عم شبع من الاعوام ، وارتوى من حديث الانام ، قد تعلم العبرانية وقرأ بها الاسفار ، وعرف بها الاديان ، ورضى بدين ابن مريم (عليه السلام) دينا ، وهو « ورقة بن نوفل »

هذا الشيخ الجليل كان جديرا أن يكون اماما لخديجة تتخذ قوله حجة ، وهديه معتصما ، لأن هناك دلائل كثيرة تدفع عن نفسها الريب بأن هذا الرجل أعلم منها بهذه الامور ، وانه لا يصدر عنه الا النصح لها .. فهو بالدرجة الاولى ابن عمها بل بحسب السن مع القرابة هو فى مقام أبيها ، فلو أن ورقة غشاش مخادع لما كان منه الغش والخداع لبنت عمه فكيف وهو مستمسك اذ ذاك بدين ذلك الانسان المملوء قداسة الذى كان اكبر همه حث الناس على التحاب ونفع بعضهم لبعض ، ونهيهم عن التشاحن وايذاء بعضهم لبعض .. وهو فضلا عن قرابته ، وسمو التعاليم التى تثقفت بها نفسه ، كان فى نظر خديجة سامى الهمة جدا . ذلك ماحملها على الاسراع اليه لتقص عليه الخبر وترجع فى هذا الامر الى علمه ، وأخذت معها بعلها ليقص هو نفسه عليه ما رأى ..

كان « ورقة » بحسب ما قرأ وعرف .. مؤمنا بأن الهيكل البشرى ليس سوى مظهر لشىء يحل فيه هذه المدة القصيرة باذن الله وهو الروح ، وأن للروح مظاهر غريبة فى بعض الهياكل ، وأنه توجد أرواح من شأنها الاجتنان عن الحس والعيان تتمكن من الانسان من حيث لا يشعر ، صنف منها يحب أن يجذبه الى سبق الكمال ، وصنف

منها يحب أن يلقى به فى حضيض البهيمية ، يقال فى العربية للاول ملائكة وللثانى شياطين

كان مصدقا بكل هذا ومؤمنا أيضا بأن بعض الارواح الذين هم الملائكة يختصهم الخالق المصور بمزيد من الخصائص ويجعلهم نواميس أى وسطاء الوحى الاعلى للذين يريد سبحانه أن تكون مراتب الروح عندهم سامية جدا

كان قد قرأ عن الانبياء ، وعرف مجىء الارواح اليهم ، وعرف أنه يظهر أنبياء كذبة وأنبياء صادقون ، وان لهؤلاء وهؤلاء علامات . فنحن لما سمعنا ذهاب خديجة الى هذا العالم المسيحى خطر ببالنا أنه لايكون سهلا تصديقه بقدسية الروح الذى أتى محمدا (صلى الله عليه وسلم) لأن يوحنا الرسولى يقول فى رسالته الاولى « أيها الاحباء لا تصدقوا كل روح ، بل امتحنوا الارواح هل هى من الله ، لان أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا الى العالم . بهذا تعرفون روح الله . كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء الى الجسد فهو من الله ، وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فليس من الله » ولكن الذى خطر ببالنا أن وقوعه صعب قد رأيناه أمرا واقعا فان ورقة بعد أن سأل بعل ابنة عمه بضع أسئلة قال له : هذا هو ناموس موسى أى الروح الذى جاءه والظاهر أنه لم يقل هذا القول ، ولم يصدق هذا التصديق الا بعد أن أجرى الامتحان الذى أوصى به يوحنا الرسولى وظهرت له العلائم الدالة على أن الروح من الله على حسب ما تعلم من الكتب

نحن لا ندعى العلم بتفسير هذه الكلمات التى ليوحنا ولا طريقة الامتحان التى أشار بها ، ولكن نظن أن ذلك العالم القريب من ذلك العهد بالنسبة الى زماننا هذا كان لايجهل هذا التفسير . وكذلك لا ندعى العلم بتفسير قول موسى

لبني اسرائيل « ان نبيا مثلى سيقيم لكم الرب الهكم من اخوتكم» ولا تفسير الاصحاح الثانى والاربعين من «أشعياء» ولكن يظهر لنا أن ورقة قد فهم من قول موسى هذا ومن أشعياء أنه سيكون نبى من العرب يكون مقامه حوالى سلع ذلك الجبل المعروف فى البلاد العربية . وهذا نص ما فى أشعياء :

« ١ هوذا عبدى الذى أعضده مختارى الذى سرت به نفسى وضعت روحى عليه فيخرج الحق للامم ٢ لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع فى الشارع صوته ٣ قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفىء ، الى الامان يخرج الحق ٤ لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الارض وتنتظر الجزائر شريعته ٢ هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها ، باسط الارض ونتائجها ، معطى الشعب عليها نسمة والساكنين فيها روحا ٦ أنا الرب قد دعوتك بالبر ، فامسك بيدك ، واحفظك واجعلك عهدا للشعب ونورا للامم ٧ لتفتح عيون العمى ، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين فى الظلمة ٨ أنا الرب هذا اسمى ومجدى ، لا أعطيه لآخر ، ولا تسبيحى للمنحوتات ٩ هوذا الاوليات قد أتت ، والحديثات أنا مخبر بها ، قبل أن تنبت أعلمكم بها ١٠ غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحة من أقصى الارض ، أيها المنحدرون فى البحر وماؤه (؟) والجزائر وسكانها ١١ لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار . لتترنم سكان سلع من رءوس الجبال ليهتفوا ١٢ ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر »

قد قلت وأعيد قولى اننى لا أدعى العلم بتفسير هذه الكتب ، ولكنى لما رأيت ورقة قال لزوج بنت عمه : هذا هو ناموس موسى بحثت عن منشأ قوله هذا فوجدت فيما

ذكرت آنفا من قول موسى وأشعياء مايشبه أن يكونماخذا فمن أراد أن يقول لي : لا يفهم من قول موسى وأشعياء ما فهمت لا يجدني آسفا على عدم اصابة ظني بخصوص ما حمل ورقة بن نوفل على قوله هذا فانه يجوز أن يكون قد عرف ذلك بغير ما ظننته . ولست في هذا المقام بذي حجاج ومناظرة ، ان انا ههنا الا كاتب سيرة اجتهد باستقصاء فروع حوادثها وتفسيرها على قدر فهمي ومبلغ ما وصلت اليه من معلومات

التنبؤ بالمستقبل

وههنا مسالة جليلة لا نستطيع مفارقة هذا المقام من غير أن نوضحها ، ونسهل فهمها على القارىء وهي أن الارواح قد تعلم بعض الاشياء قبل وقوعها اذا كشف الله تعالى لها عنها بواسطة النواميس أو بواسطة غيرها

هذا المعنى كان بنو اسرائيل يقولون به كما كان كثير من الامم الاخرى تذهب اليه ، وقد جاءت كتبهم حاملة سلسلة من اخبار هؤلاء البشر الذين كان الروح الالهي ينزل عليهم فينبئهم بما سيكون . وتبتدىء هذه السلسلة المهمة في كتبهم بحديث نوح الذى انبىء فانبأ بأنه سيكون طوفان ، ويموت كل من على وجه الارض ، وهدى الى صنع الفلك فصار الطوفان ونجا هو وأولاده ونساؤهم وتناسلوا بعد الطوفان، ثم تفرقوا ، ثم اصطفى الله من هذه الانسال ابراهيم (*) وكان ينزل عليه روحا من عنده . وشاخ ابراهيم وزوجته سارة من غير أن يصير لهما نسل ولكن حبلت منه اخيرا هاجر جارية زوجته ونزل عليها الروح

(*) ابراهيم بن تارح بن ناهور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح « كذا في سفر التكوين »

وقال لها سيكثر نسلك فلا يعد من الكثـــره فولدت له اسماعيل ، ثم انبيء أن زوجته سارة ستحبل وتلد بعــد هذه الشيخوخة وطول هذا العقم فولدت له اسحـــاق ، وانبيء أن نسـل اسحاق سيكون كثيرا ايضـا . وغضبت سارة على هاجر فطردتها وغلامها ، فنزل على هاجرالروح وقال لها لا تخافى لان الله قد سمع صوت الغلام وسيجعله امة عظيمة . وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية ، برية فاران التى قال عنها موسى أن الله سبحانه ظهر فيها

وتأخذ كتب بني اسرائيل بعد ذلك في سرد اخبـار من تناسل من اسحاق بن ابراهيم واما أخبار من تناســـل من أخيه اسماعيل فلا تذكرها فابن اسحاق يعقوب وهو اسرائيل كان الروح ينزل عليه ، ويوسف بن يعقوب كان الروح يجيء اليه

ويوسف هو سبب مجيء بيت يعقوب الى مصر ، وهناك تناسلوا وكثروا حتى ولد فيهم موسى صاحب الشريعـة الشهيرة . هذا أيضا كان يتنبأ ، وينزل عليه الروح ، وهذا قال لقومه « ان نبيـا مثلى سـيقيم لكم الرب الهكم من اخوتكم »

واسس موسى لبنى اسرائيل ملكا على الوحى الروحى وخلفه بعد موته تلميذه يوشع بن نون ، وبعد موت يوشع بدأ الفساد والضعف يحل بهم ثم انتشلهم داود وسليمان وتعاظم الملك فى أيام سليمان ثم طرات عليه بعده الطوارىء حتى زال . ولم يخل زمان من ازمنة ملوكهم وبعدها من نبى أو عدة انبياء حتى نزل الروح أخيرا على مريم ام عيسى وبشرها بأنه يكون لها ولد من غير أن يمسها بشر . وقد ولدت مريم عيسى على هذه الصورة التى بشرت بها وصار نبيا أيضا ولكن قومه كذبوه ولم يصدقه الا قليل . وقد

كذبوا من قبله اكثر الانبيـاء الذين كانوا ينذرونهم بزوال الملك اذا ظلوا على الفساد

انا لا اعرف لماذا يكذب بعض الناس أشياء هم يؤمنون بمثلها ، أو يصدقون أشـياء يكذبون مثلها . هـذا أمر وقع كثيرا ويقع دائما أمام أعيننا وأسماعنا فهلّ التصديق والتكذيب بحسب وزن الاشخاص ، وما هو الميـزان فى الاشخاص ؟ أم بحسب وزن العقل وما هو سبيل العقل فى التصديق والتكذيب بمثل هذا ؟

انا أرى أن من آمن بسعة قدرة الله ، وبعجائب صنـع الله ، ونفذت بصيرته لرؤية آثار روح الله ، وآمن بمجىء ناموس الله لعبده موسى ، لا ينبغى له أن ينكر قدرة الله فى اخراج عيسى من مريم بغير واسطة بعل ، ولا يجدر به ان يكذب نزول روح الله عليه كما نزل على اخيه موسى . ومن آمن بعجائب موسى وعيسى ابنى اسحاق وبنزول روح الله عليهما لا ينبغى له أن يستبعد نزول هذا الروح على أخ لهما من بنى اسماعيل

هذا أقوله للذين صدقوا بما هنالك من العجـائب والغرائب الموسوية والعيسوية ، واما الذين لا يصـدقون بهذى ولا تلك ، ولا يحكمون الا الحس والعقل ، فهـؤلاء أمضى بهم الى التجارب والمشاهدات وأنا واثق الا نعدم فى خزائنها كثيرا مما يؤيد أن بعض البشر يخبرون عن بعض الحوادث قبل وقوعها

فان قال لى هؤلاء نعم قد يوجد أناس على هذا النحـو ولكن ليس هذا سبب اخبار من روح كما تقولون ، قلت لهم اذا اتفقنـا فى ثبوت الاصل فلا ضير علينـا بعد ذلك بالاختلاف فى الاسباب وأسمائها

وان قالوا لى ما الفرق بين هؤلاء الذين قد تراهـم فى أزمنتنا هذه من هذا القبيل وبين من تحدثوننا عنهـم ؟

قلت لهم ان هذا الفرق ظاهر لأن الاختصاص كله من الله فهو يعطى انسانا معرفة بعض الوقائع الآتية ويجعله شارعا وقائد أمم ومؤيدا بتأييد عظيم لا تحيط به العبارة ، ويعطى انسانا آخر مثالا صغيرا من هذه المعرفة من غير أن يجعله شارعا وقائد أمم ومؤيدا بتأييد عظيم ، فالاول يقول أنا نبى أو أنا رسول ويظهر الله صدقه فيما يقول ، والثانى لا يستطيع أن يقول هذا وان قاله لايظهر قوله حقا . فهل ينكر هذا الفرق الكبير ذو بصيرة لايعدوها الاخلاص الى الله والادب مع مجالى أمره ، ومظاهر سره ؟

لقد كان ورقة على ما ظهر لنا شديد الاخلاص متعمقا فى علم الروح ومعرفة النواميس الالهية وأخبارها .. وكان على نور فراسة من ربه وسرقة استطلاع ، فلما سمع هذا النبأ الجديد تفرس فى صاحبه ، وتذكر ما نقل عن الانبياء وأصحاب النواميس من قبل ، وتذكر قول موسى لقومه بنى اسحاق « سيقيم الله نبيا مثلى من اخوتكم » وما اخوتهم الا بنو اسماعيل فقال له هذا هو الناموس الذى نزل على موسى

ثم تذكر ايذاء الناس للانبياء مع قول أشعياء « لترفع البرية صوتها ، الديار التى سكنها قيدار » وقيدار هو ابن اسماعيل ، وقوله « لتترنم سكان سالع » وسالع أو سلع جبل على مقربة من « يثرب » من أشهر جبال الجزيرة العربية ، فلاح له أن قريشا ستضطر هذا النبى الى مغادرة بلده « مكة » فقال له « ليتنى فيها جذعا — أى شابا — اذ يخرجك قومك » .

وبعد فترة قصيرة توفى ورقة .. أما « خديجة » فتمسكت بكلام هذا الرجل أيما استمساك ، واضافت تكهنه الى ما قد عرفته هى بدلالة عقلها وتجربتها فأصبح ايمانها بنبوة بعلها ورسالته الى الناس أثبت من الرواسى

الفصل العشرون

الإيمان وخوارق العادات

مبررات الايمان

قال بعض النـــاس فى تلك الايام لاعجب اذا آمنت « خديجة » ببعلها فان رابطة الزوجية تستدعى مثل ذلك ولكن ذا القدرة العظيمة قد أتى هؤلاء القائلين بما يعارض مزاعمهم ، اذ بادر بعض من سمع هذا النبأ بالايمان به . ولم يبق المصدق به « خديجة » وحدها فاضطروا أن يخترعوا أسبابا أخرى للايمان به

حرب فكرية قامت أمام هذا النبأ الجديد عند شيوعه، ارتجت له مكة وما حولها ، وانقسمت الافكار ، وتباينت الانظار ، وفى مثل هذه المواقف يعرف الراجحون بحسـن الفطرة ، وقوة الفطنة ، اذ يكونون من السابقين فى رؤية الدقائق ، والوصول الى الحقائق

قال نفر منهم :

« لقد عرفنا محمدا طول هـــذه السنين فما عرفنا الكذب فى قول له ، ولا عرفناه محبا للخداع .. وقد قام اليوم يخبرنا بأمر وقع له ليس هو بدعا من الامور ، ولا هو بضارنا شيئا . أتانا يخبرنا بأمر يشبه مانسمعه عن أمر موسى نبى بنى اسرائيل ، ولم يكن أمر موسى الا نافعا لقومه فلعل الله سبحانه يريد أن يهدى الينا نفعا بواسطة هذا الرجل الصادق الامين منا »

وقال نفر :

« يقول صاحبنا ان روحا أتاه وأوحى اليه ما أوحى ، ولا شىء من هذا ببعيد عن العقل اذا تأدب العقل ووقف أمام بحر القدرة الازلية الابدية وقفة العارف أن هذا بحر

لا حد له . ويقول أنه أمر بتبليغ الناس هذا الوحى وما سيتلوه »

وقال البعض :

«ان هذه الدعوى عظيمة فان كان ما ادعاه حقا كان من العار العظيم والضرر الكبير أن نرد هدية ربنا عز وجل الذى أهدى الينا العقل من قبل ، وهو يعزز اليوم تلك الهدية بهدية أخرى ربما كانت من نوعها ، وربما كانت من نوع أعلى ، وهل يرد حامل العقل مثل هذه الهدية بعد أن يذيقه العقل طعم الرشد والمعرفة ويأتيه بروائح مايهب الخالق جل وعلا من صنوف المعارف ، وان كان ما ادعاه غير حق فان أمده سيكون قصيرا لان لدينا عقولا ولا يضرنا حينئذ ظهور أمره »

وقال نفر :

« لماذا يدعى الصادق الامين هذه الدعوى ان لم تكن صحيحة ؟ هل فقد عقله ؟ كلا .. فاننا لانزال نرى صحته واعتداله على أتمهما ، هل تغيرت أخلاقه ؟ كلا فان من الاخلاق مايرسخ مع كثرة الاعوام ، وقل أن يتحول الصادق عن صدقه .. كلا بل الامر جد ، والدعوى صدق ، وان لهذا الامر لناصرا من قوة ساقته ــ بعد أن عاش أربعين سنة ــ الى الاتيان بهذا الامر الغريب الصعب عليه ، وان الايمان بقدرة الله تعالى ليدعونا الى اجابة هذا الداعى من لدنه، وان الاخلاص ليدفعنا الى اعلاء الكلمة التى تنزلت الينا فضلا من ربنا ورحمة ، انا به مؤمنون ! »

كان فى مقدمة هذا النفر أبو بكر ذلك الرجل الذى لم يعرف الى ذلك الوقت بعيب عند قومه ، وليت شعرى لماذا تجول الظنون وتحوم فى تلمس الاسباب لايمان أمثال هؤلاء الافاضل مع اتفاق العقلاء على أن الذى رسمنا

صورته من اتجاهات تفكيرهم هو المطابق لحكمة المتدلين

القائل ان « خديجة » انما آمنت ببعلها لانه بعلها هو فى سعة من ظنه هذا اذا شاء . ولكن بما مهدنا له من المثل بايمان أبى بكر ، نرجو أن يكون انتفع بمعرفة أن طريقة ايمان « خديجة » كانت أسمى مما يظن

ان الذى آمن به أبو بكر ، ثم مئات ، ثم ألوف غيره ، لا يجوز للعاقل المنصف أن يحرم زوجته العاقلة من شرف اتباع الطريقة التى آمن بها هؤلاء الافراد ثم الجماعات

ان ظنون الناس تكون على حسب اخلاقهم وطباعهم وتصوراتهم ، فالذين يصرون على ادعاء أن السيدة « خديجة » لم تؤمن بهذا الروح الجديد الا لان صاحبه هو بعلها هم اما جامدون فى معرفة الاخلاق البشرية على شىء يستعيذ العاقل بالله من تفاهته ، وهو القسم الردىء منها . واما انهم مجبولون على العناد ، أو أنهم مستعظمون لتصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات

نحن لا نسوغ لانفسنا أن نعيب احدا ممن كان حظهم قليلا من علم اخلاق الناس ولا ندعى انا نستطيع بالكلمات القليلة التى نقولها أن نغير آراءهم ونتمكن من اقناعهم ونودع فى أذهانهم علما جديدا واسعا ، ولكنا نستطيع أن نذكرهم بأن اخلاق الافراد ليست على شاكلة واحدة ، بل منها ماهو فى أسفل السفل ومنها ماهو فى أعلى العلى ، ومن الناس من يغلب عليهم الصدق والاخلاص مايملك قلوبهم ويجعلها بعيدة عن التصنع والرياء ، وعن الارتياب بالامور التى ليست غريبة عن محيط القدرة والحكمة والعناية الازلية ، اذا حدث بها المعروفون عندهم بالصدق والامانة ، ويجعلها قريبة من كلّ ما فيه تمجيد اسم الخالق جل وعلا وتعظيم مظاهر أمره وسره . وبعد هذه التذكرة

نستطيع ان نقول لهم أن سيدتنا هذه كانت من أهل هذا الخلق الجليل ، كما تشهد بذلك سيرتها .. ومتى تزحزح هؤلاء عن مركزهم فى علم الاخـــلاق ســـهل عليهم أن يشتركوا معنا فى معرفة أنه ليس محكوما على « خديجة » بالحرمان من الايمان الصحيح المبنى على أسباب صحيحة لا على كونه بعلها

وأما المجبولون على العناد ، والفرور والاعجاب ، فلا نتعبهم بسماع أقوالنا اذ ربما أتت ثقيلة عليهم ، ولا نتعب أنفسنا بمخاطبتهم اذ قد تأتى علينا ثقيلة .. فلهم دينهم فيما توقفهم عليه فطرتهم ، ولى دينى فيما تقتنع به نفسى

وبقيت لى كلمة مع الذى يستعظم تصـديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات كثيرة . ان هذا معذور فى نظرى والتفاهم بينى وبينه سهل لانى لا أطلب أن يترك ما يؤمن به من نظريات ، بل أسايره فى الحديث وهى فى يده فنبلغ معه غاية حسنة تصلح أن تكون ملتقى لنا مهمـا تشعبت حولها آراء أخرى لكل واحد منا

أنا أقول معك يا صـاحبى ان الذى يطالبه غـيره بالتصديق ، له أن يطالب هو بالادلة والآيات .. ولكن اذا سمعت بمصدق ولم تسمع قصة طلبه للدليل والآية فلا تحكم بأنه آمن من غير دليل وآية الا اذا كنت تعرفه من قريب وتعرف أن بضاعته كلها تقليد الآباء والمعلمين

أنت تعرف أن أبا بكر وأمثاله ممن صدقوا محمـــدا (صلى الله عليه وسلم) لم يكن لهم آباء سبقـوهم فى تصديقه ، ولا معلمون حملوهم على تأييده ، وتعرف أنهم كانت لهم عقول ناضجة متحررة ، وألباب زكية فائقة ، فهل تظن أنهم صدقوا بغير آيات بينات ، وأدلة ساطعات ؟

المشارب فى الاستدلال مختلفة وأخشى أن يكون مشربك

فيه كمشرب الذين لايعدون الاية الا الامر الخارق للعادة ولذا رأيت الا أدع هـذا المقـام من غير أن احادثك بالآيات والخوارق بعد أن أسلفت طريقة « خديجة » على النحوين لتعلم كيف يمكن أن يكون ايمان كل مؤمن بمحمد (عليه الصلاة والسلام)

الآيات والخوارق

اذا وقع شيء خارق للعادة لايستطيع احد حينئذ أن ينكر انه آية عظمى ، ولكن ما هي العادة ؟ .. وهل يمكن أن تخرق (اى تخالف) وهل وقع شيء من هذا ؟

يعنون بالعادة عادة الاشياء وطبيعتها ويعبر بعضهـم عنها بسنة الله تعالى فى الكائنات ، والذين بحثوا فى امكان خرق العادة لم يفرقوا بين شيء وشيء بل جعلوا الكلام فى هذا الموضوع على اطلاقه ومن هنا اشتد خلافهـم . والذاهبون الى وقوع الخوارق لم يذكروا فى الأمثلة التى أوردوها من صور هذه الخوارق الا شيئا يسيرا جـدا لا يصلح أن يلتفت اليه خصومهم ، فضلا عن أن يكون به اقناعهم ..

أن لله عز وجل سننا فى كل موجود ، أو نقول ان لكل موجود عادة وطبيعة ،والشمس مثلا من جملة الموجودات فهل يقول الذين يعتصمون بالخوارق أنه يمكن أن تصـير هذه الشمس برغوثا ، وتبقى هذهالارض على حالها،ويظل الناس فيها ناسا يبصر بعضهم بعضا بغير نور ويحيون هذه الحياة عينها متمتعين بحدائق وفواكه ، ولحـوم وشحوم ، ومياه جارية ، وازهار زاهية وصيف وشتـاء وربيع وخريف ... الى آخره .. الى آخره ؟؟

أنا لا أعرف ماذا يقولون ، ولكنى مع أن ايمانى كايمانهم أو أكثر بعظيم قدرة الله تعالى يجدوننى ـ اذا قالوا فى هذه

المسألة « نعم » ــ مخالفا لهم ، وقائلا : اذا تغيرت سنة الله تعالى فى الشمس فصارت هى برغوثا ، تتغير سنته فى أيضا فأصير أنا غير انسان وغير باحث عن الخوارق

الذكى يفهم من هذا المثال أن بحث الخوارق المدون فى كتب جميع الملل لايقف امام نفخة من روح الله الحكيم اذا أراد عز وجل إعلان الغيرة على حكمته وسننه ، ويفهم أيضا أن الدين الذى هو من أكبر هدايا العناية الازلية لا يتوقف عليها .. اذ لو توقف عليها ، وكان لابد فى ظهور صدق المأمور بتبليغه من ظواهر خارقة ، لما تيسر تصديق أحد لأن كل واحد حينئذ يخترع فيقترح صورة من الخوارق لسنن الله وناظم الكون سبحانه لم يشأ الى الآن نثره على مايهواه المقترحون

الاقتراحات لا حد لها ولا عد ولا نظام ، هذا يقترح مثلا أن تصير الشمس برغوثا ، وآخر يقترح أن يصير المشترى عصفورا ، وآخر يقترح أن يكون المريخ (طرطورا) واخر يقترح أن تكون الزهرة زهرة لاتذبل أبدا ، وآخر يقترح أن ينضب البحر كله وتظل الأنهار جارية ، وآخر يقترح أن يصير البحر كله برا أو البر كله بحرا والناس كلهم سمكات مؤمنات مصليات صائمات ، واخر يقترح أن يكون التراب كله ذهبا ،وتنبت عليه أشجار التفاح والليمون ، والاعناب والزيتون ، وآخر يقترح أن يصير الوقت كله ليلا وتحبس الشمس فى حجرة من حجرات الملوك ، وآخر يقترح أن يصير الوقت كله نهارا ويذهب النوم الى الشجرات الدائمة اليقظة .. الى آخره .. الى آخره ...

نعم ان مبدع منظومات الكون لم يشأ الى الآن نثرها ولا نستطيع أن نقول انه ينثرها على حسب الاقتراحات

لتأييد الرسل ، فما معنى مباحثاتنا معشر البشر بأنه هل يستطيع ذلك أم لايستطيع بعد ايماننا بعدم تحددقدرته وبعد سماعنا وحيه يرشدنا بهذا الكلام العالى (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)

بعد تقرير هذا أقول ان البشر لا يستطيعون ان يعرفوا كل سنن الله تعالى أو كلّ عادات الاشـياء وطبائعها ، بل لا يسـتطيعون ان يعرفوا جميع أسرار كائن من الكائنات وجميع طبائعه بالتمام ، ثم هم لايعرفون أيضا مقدار عنايته عز وجل بالانسان وانه مازال يمده بصنوف الهدايات ، وأنه قد يشاء اغلان آية له لاظهار عنايته به فيريه شيئا مثلا على خـلاف ماتعلمه من عادات بعض الاشياء التى لا يترتب على اختلاف المعروف من عاداتها نثر المنظومات. ومن أمثلة ذلك أن النار شأنها الاحراق وقد تقتضى سننته تعالى لاعلاء معارف الانسان وهدايته أن يريه النار غـير محرقة لسبب تتعلق القدرة باخفائه

ان مثل هذا يقع ونعده من جملة سنن الله تعالى لان من جملة سننه ابداع هذا الانسان واطلاعه على واسـع القدرة وبديع الصنعة واحتجاب الحـكمة ، واختصاص العناية

ومن هذا التفصيل يتبين للقـارىء أنا مؤيدون للآيات لا منكرون لها .. وقصارى مانقول أن الدين لايتوقف على الخوارق بقدر مايقترح المقتـرحون ، ويظن الظانون ، ويخترع المخترعون ، وانما يؤيده الله تعالى بآيات تنشرح لها البصائر المستعدة ، ولا نقول ان هذه الآيات فيهـا تحويل لسنة الله تعالى أو عادة الاشيـاء وطبائعها اذ لا تبديل لسنته سبحانه ، وانما فيها معونة ربانية نعرفها بآثارها

وربما كرهنا التعبير بكلمة الخوارق التى اصطلح عليها

الكتاب ، وان كانت المناقشة على الالفاظ بغيضــة الينـــا وبعيدة عن رأينا . ونحب التعبير بالآيات (كما عبر القرآن الحكيم) ويالله ما أكثر الآيات على أن ما اتى به هـــذا المختار هو فضل ربانى وأمر روحانى

***

لقد أنبته الله نباتا صالحا ، وشمله بالعناية منذ كان فى الصبا ثم الشباب ، وهو غير شائن ذلك الاهاب ، حتى دخل الكهولة وتاق الى التكمل ، وفى هـــذه السن بداه بتحبيب العزلة وتفريغ الفكر من الصور الفـانية ليشرق فيه الجلال الذى لايفنى ، ثم اعلن لروحه روحا من لدنه كما منح هذا من قبله رجالا كثيرين من المصطفين كابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى . ومن الآيات أن هذا الوحى صالح مصلح لنا ولم نجـده طلب منا أن نعبده من دون الله ، وانما قال لنا أنا عبد الله جئتكم ببلاغ من عنده أنه وحده له الحكم ، وانه وحـده اليه المرجع والمآب ، ولو قال لنا انا الهكم لوجدنا مقترحين عليه أن يجعلنا خالدين ، واذا لوجدناه عاجزا

الحمد لله لقد جاءنا هذا الرسول بآيات كثيرة لانستطيع عدها : جاءنا بالعلوم وهو امى ، وجمع كلمة الشعوب وهو وحيد ، ورفع الله له من الذكر مالم يرفع لمثله ، وجعـل هديه باقيا ، وصوته عاليا ، وروح تأييده ساريا .. ولذا ليس اليوم بنا من تعجب حين نسمع ايمان اقرب الناس منه وأعرفهم به بل نحن بخديجة .وابى بكر مقتدون ،ولربنا على هذه العنايات والآيات شاكرون ، وبوحى الله لهـذا المصطفى مؤمنون

الفصل الحادى والعشرون

إعلان الدعوة

الثبات في سبيل الحق

لم تقف فضائل السيدة « خديجة » عندما ذكرناه الى الآن من سيرتها بل هى كالينابيع الثرور لا تغيض . والآن يطلع القارىء معنا على ناحية من أعظم النواحى لفضائل هذه السيدة الجليلة . جاء الآن دور الثبات فى سبيل الحق ، وهذا الثبات لانجده فى كل عصر الا فى صحائف أفراد ندرتهم بين بنى آدم أعظم من ندرة الياقوت بين الحجارة

لقد مر على بنى آدم الوف من الاعوام ، وفى كل عصر وجد منهم الوف الالوف . ومن كلّ هذا العدد العظيم لا نعرف مائة امرأة ثبتن فى سبيل الحق مع شدة المعارضة ثبات « خديجة » أما ثبات بعلها الكريم فلاينبغى أن نقيس به ــ بعدماقدمناه ــ ثبات أحد ، فأنا قد وصلنا فى الفصول السابقة الى بيان أنه مؤيد أعظم تأييد ، وأنه سمع الوحى الالهى آمرا اياه أن يقوم بأعباء الرسالة والتبليغ ، فأصبح الفرق بينه وبين غيره عظيما جدا منذ أتاه هذا الوحى . وعندنا معشر المؤمنين به أنه هو المختار الاعظم ، والمصطفى الاكبر ، فلذلك لا نرى ثباته فى سبيل الحق يعادله أو يقاس به ثبات

ظل هذا المختار ثلاث سنين يدعو سرا ، ثم أمر أن يجهر بالامر فلم يجد الى جانبه زوجته تثبط وتخوف أو يضعف قلبها فتؤثر الراحة وطمأنينة البيت على النصب واحتمال الاذى ، بل وجد قرينة على استعداد للوقوف معه بالصبر

والسكينة أمام المعارضين والمعارضات . وما أشد ما كان أمام هـذا الداعى الى غير ما عرف القـوم ، وما أحـوج هذه الحالة الى قلوب كلمـا كبر المعـاندون كيدا تقول « الله أكبر » !

الله أكبر ، كان المعاندون أفرادا وجماعات قد امتلكت الانفة والعزة نفوسهم ، واجتذبت قلوبهم ، وامتصت من أفئدتهم النداوة فأصبحت نسمـات الهدى تزعجها ، وحرارة الانذار تكاد تحرقها

قبيلة قريش

قريش وما قريش ؟! قبيلة ترى لنفسها السبق فى كل فضيلة ، والشرف على كل فصيلة ، لها انوف شامخـة كأنها تطاول السماء ، واعناق مشرئبة كأنهـا تتصيد كل علياء ، تباهى كل قوم بكثرة النجبـاء ، وتفاخر من تشاء بالعظماء . . مثلها بين القبائل كالشمس مكانة ، وكالروضة نضرة وعبيرا

هذه القبيلة التى حالها ماوصفنـا من قوة الشكيمة وشدة الاباء ومزيد التعالى ، كانت قد أصيبت من الاقتداء بمضرته . . اذ كانت بعض العقائد التى صادفتها فى البلاد المجاورة قد التصقت بعقولها حتى أصبحت ترى التصدى لاقتلاعها منها اعتداء على حقوقها ، وانتهاكا لحرماتها

هذه القبيلة كان لها من نور الذكاء مايبهر النـاظرين ولكن قد تراكمت على أفكارها سحب من آثار التقليـد حالت بين ذكائها وبين الحقائق العالية حتى رأيناها تدرج مع البلداء فى مدرج واحد من تأليه صور صماء عميـاء بكماء جامدة قد صنعتها الايدى ، فقامت تحسب أن هذه الصور تضر وتنفع ، وتجلب وتدفع ، وتقرب الى الخالق الأعظم وتشفع

وراحت تعلن أن لهذه الصور مجدا ، وتستحق شكرا وحمدا ، وظلت تصنع لها ما تصنع الامم لآلهتها من تقديم القرابين ، ونذر النذور ، وتوجه النفوس ، وتعلق القلوب

نعم ساورت تلك العقائد قلوبها حتى صارت النفوس فيها لاتنبسط لشيء انبساطها لتمجيد تلك الالهة ولا تنقبض لشيء انقباضها للطعن فيها أو النقص من تكريمها

هذه حال القوم الذين امر هذا الرسول أن يقوم فيهم منذرا وداعيا الى معرفة الله تعالى وتوحيده ، وكانت قريش تعرف هذا الاسم الجليل الدال فى هذه اللغة على واجب الوجود خالق السموات والارض ، ولكن لم تكن تعرف ما ينبغى أن يكون عليه جلال الذى يعبر عنه بهذه الكلمة من الكمال والبعد عن مشابهة الحوادث ، وقد جرها الجهل بالله تعالى وسننه وآياته الى ما جر كثيرا من الامم اليه من جهل كثير من الحقائق . وانى لا أشبه نتائج الجهل به عز وجل الا بسلسلة طويلة يستدرج بها ذلك الجاهل الى أسوأ النهايات اذا لم تتداركه الأسباب من عناية الرءوف الرحيم جلت آلاؤه ، وتعالت أسماؤه

((سلسلة)) الجهل

ولقد كاد حظ قريش من هذه السلسلة ــ سلسلة الجهل ــ يصل بها الى مستقر لا تغنيها فيه الرفعة على أمثالها ممن ضرب الجهل خيامه عند خيامهم ، ولا تجديها القوة اليسيرة التى كانت تجدها فى اجتماعها ذلك . كاد الاتكال على الأصنام يعفى كل آثار الفطرة منها ، ويطمس كل مظاهر الذكاء ، ويذهب بما تركه فيها من المحاسن بعض فضلاء الاسلاف قبل عهدهم بهذه الالهة التى فتنوا بها . أصبحت لا تعى ما فضل الله ، وما رحمة الله ،

وما عناية الله ، وغدت بعيدة عن معرفة ما الروح ، وما خصائص الروح ، وما عبـادة الروح للاحد المحيط بكل شيء ، وراحت تعرض عن العلم بمراقى الامم واتســاع دائرتها ، وعن معرفة وظيفتها من اتمـام ارادة الخـالق باظهار البـدائع على يدها ، وظهور آلائه وآثار عنـايته عليها ، وأصبح قصارى ما يجول بفكر الواحد من هؤلاء القوم أحد شيئين يشيلان فى ميزان العقلاء : شيء يرضى به وهمه فى الكبرياء ، ولم يدر مغرورهم أن التزلف الى تلك الحجارة وأمثالها هو منتهى التسفل العقلى ، وأن تلك الكبرياء لا تجديهم شيئا اذا دهمهم داهم خارجى ، كما وقع لهم يوم « أبرهة »

هـذه السلسـلة الطويلة من نتائج الجهل بالله تعـالى وسننه وآياته أصبحت قيدا لمداركهم قد أحكمت حلقاته فهم لا يستطيعون مادام موجودا أن يتخلصوا مما هم فيه لأن جاذبا منه يجذبهم من حيث لا يرونه كلما تحركوا

هذه هى السلسلة التى اقتضت عناية البـارىء أن تظهر آية عظيمة لتحطيمها ، وتخليص تلك النفوس من قيدها . واقتضت الحكمة البالغة والتدبير الأسمى أن يكون ذلك بواسطة من انفسهم . وأن تجرى الهداية على سننها فى الاولين ، فيلاقى الواسطة مايلاقى ، ويصبر مايصبر ، ويتم الله ما يريد . ولذلك لـما قام هذا المصطفى يعلن هـذه الدعوة صادف تلك العقبات ، وما تلك العقبـات ؟ جهـل وغرور وكبرياء وعتو وقسوة وفظاظة وتعصب للمألوف ونفرة من الوعظ والنصـح واباء امام الانذار وطغيـان وبهتان وعدوان واقدام على قتل الذى يذكر آلهتهم بمـا يكرهون

أي قلب ، لولا التأييد الربانى ، يجد الى الصبر سبيلا

امام هذه العقبات ؟ وأي شخص ، لولا العون الرحماني ، يصمد للقاء هذه الصوادم ، وأي امرأة غير «خديجة» ترى بعلها في جوف هـذه الغوائل ثم لا تزيده الا حمدا على القيام بوظيفته ، وايناسا بوقوفها معه في وجه كل خصم لدود

اوذي (عليه صلوات الله وتسليماته) بأنواع الاذى . فحينما أسمعهم الدعوة ، تكاثر المفتأتون عليه والمفترون .. وظاهر سوادهم الجاحدون والحاسدون من أقرب أقربائه .. ظهر الجاحفون والمتباعدون عنه ، والهازئون به والساخرون منه ، دع عنك صغار النفوس ، ومن أكل قلبهم حسد أو بغضاء ، قال المفترون هو يطلب الملك علينا ، وقالوا عن الوحي الآلهي هو شعر جاء به الينا ، وقد حشروا ماعرفوه من العيوب وارادوا أن يعزوها اليه لينفروا الناس منه ، وينتقموا لآلهتهم التي بدههم بجحودها ، وكشف لهم نقيصة جمودها ، وايسر ما فعلوه سبهم اياه والهزء به والافتراء عليه ومجافاته ثم مجافاة من لم يجافه

فعلوا كل هذا وهو متذرع بالصبر ، مثابر على الصدع بالأمر ، وفي هذا كانت معه هذه الزوجة الشريفة الفاضلة تعلم محبي الحق كيف يكون الصبر من أجله ، وتهدى الى الأجيال الآتية أجمل صورة لثبات الجاش أمام الصعوبات

وما أحلى الصبر اذا كانت عاقبته كعاقبة صبر هذا الرسول الكريم ، فقد كانت العقبى ذلك الفوز العظيم الذي ليس في الدنيا من لم يسمع خبره ، ولنعم عقبى الصابرين .

خلاصة الدعوة

أما الدعوة الشريفة التي أعلنها ، فهذه أركانها :

(١) العلم بأن لا شيء يستحق التاليه الا الله الخلاق العظيم الذي لا يشبه الحوادث ولا يشبهه شيء منها

(٢) العلم بأن هذا البارىء المصور ذو عناية خاصة بالنوع الانسانى ، ومن عنايته به اتحافه بصنوف الهدايات، ومنها الهداية بواسطة وحى أعلى للرسل المصطفين

(٣) العلم بأن هذا الداعى الجديد الى الله هو رسول مصطفى قد أرسله الله بدين يدعو الى السعادة فى هذه الحياة وحياة أخرى يوم الجزاء

(٤) العلم بأن الايمان بهذا الرسول يقتضى الاذعان والتسليم الى كل ما جاء به

هذه أركان الدعوة التى كان مأمورا أن يبدأ بها الناس وهى ملخصة بهاتين الجملتين الشريفتين « لا اله الا الله محمد رسول الله » فمن قالهما مطمئنا بهما قلبه دخل تحت اللواء المحمود لواء المحمدية الذى يظلّ مئات الملايين فى يومنا هذا

والرسالة المحمدية لم تكن لقريش ، ولا للعرب خاصة، بل هى للناس كافة ، ولكن البدء بالعشيرة الاقربين كان هو الذى تقتضيه الحكمة حتى اذا أجابوا كانوا عونا للدعوة لا عونا عليها

بعد عشر سنوات

بعد عشر سنين من عهد الرسالة كان المؤمنون قد كثروا واخذ العناد من الخصوم يزيد ، وجعل الحسد يلتهب في قلوبهم لهذا النجاح الذي كانوا يحسبونه محالا ، وكم يحسب أمثالهم مثل هذا الحسبان

كان الجاحدون فى نار من ذلك الحسد ، والمؤمنون في جنة من الفرح بنعمة الله ورحمته .. كان الجاحدون يفكرون كيف يزهقون هذا الروح الجديد ، والمؤمنون ينتظرون من مولاهم اعلاء شأنه . كان الجاحدون حياري

فى هذا الداعى ، فطورا يسبونه وطورا يهزأون به .. وأحيانا يرجعون الى انفسهم ويحاسبون حسهم وعقلهم فيه ، فيجدونه بعيدا عن الخداع وسائر المظان التى كانوا يظنون، وكان المؤمنون من يقينهم فى حظ عظيم من الطمأنينة وانشراح الصدر وفرح الضمير .. كان الجاحدون يرجعون الى تلك الحجارة فيشكون اليها المحمديين وما أتوه من مخالفة قومهم وتأييد ذلك الرجل الذى لا يذكر آلهتهم الا بسوء ، وكان المؤمنون يرجعون الى من لا تدركه الأبصار متوجهة اليه وجوههم ، مسلمة اليه قلوبهم ، لا يتوكلون الا عليه ، ولا يأخذون الا بسننه ـ كان الجاحدون عكوفا حول تلك الاصنام الجامدة ، وكان المؤمنون يقولون سبحان الله عما يصفون ، تعالى الله علوا كبيرا .. كان الجاحدون كثيرى الغم والهم ، وكان المؤمنون مع شدة ما لاقوه من الأذى فرحين مستبشرين قد أبدل الله لهم مرارة الصبر حلاوة ، وذلة القلة عزة

وفى أواخر تلك السنين العشر الشداد كان على سرير الاحتضار شخص عزيز جدا عند المؤمنين . ولم يشمت الجاحدين ـ تلك الايام ـ شيء مثل مغادرة هذا الشخص لذلك العالم الاسلامى الذى نشأ وترعرع بينهم بالرغم منهم

كان فى هذا الشخص العزيز روح ترفرف فى هذا المحيط الصغير ، تارة ترفع البصر الى مقرها الاقدس عند المحيط الاعظم فتحاول الطيران اليه وتارة تلقى به على هذا المحيط الذى انست به فتظل مرفرفة عليه وجانحة الى المكوف لديه ، وكان جاذب من قلوب هذا العالم الاسلامى يتمنى بقاءه ، وجاذب من أمر الله وسنته يقضى بطيرانه ، وأمر الله أعلى واليه المصير

هل عرف القارىء من هذا الشخص العزيز ؟ ذلك كان

شبح سيدتنا « خديجة » فقف أيها القلم خاشعا ، لقد ماتت من تركت للفضائل حياة لا تفنى .. لقد انتهى هذا العمر الذى أمدك بهذه المواد السامية ، ولن تجد لك أيها القلم شرفا بعد هـذه السيرة الا اذا قمت بنقـل التاريخ المحمدى

سـبحان رب الكون هـذا حكمه
في الروح قد سيمت بهذا الواقع
مرآتها هـذا الشخوص بها ترى
زمنا وترجع للمحيط الواسـع

لقد مرت روح سيدتنا « خديجة » بهذه الدار فرأينا منها مانقلناه للقارىء ، والآن هى لدى المحيط الواسع ، فهل تتجلى اليوم على هذا العالم الذى مرت به وترى أن تلك الكلمة التى قاست فى سبيلها مع بعلها الكريم ما قاست قد أعلاها الله تعالى وعظم شأنها ونصرها العرب وغير العرب وأصبحت برور الارض وبحورها مملوءة كل هذه العصور الى يومنا هذا بمن يقول من جميع أجناس البشر : « لا اله الا الله محمد رسول الله » ؟

وقد ولدت سيدتنا « خديجة » من زوجها الكريم بنين وبنات ، وبقيت لها من بنتها السيدة « فاطمة الزهراء » ذرية مباركة فى أكثر أقاليم الارض والحمد لله ، ولكن هل تتجلى اليوم تلك الروح الشريفـة وترى أن كل المؤمنين يعدون اليوم أولادها ؟..

فالسـلام عليك يا أم المؤمنين ، سـلام الله ورحمته وتحياته على روحك الطاهرة يا أماه ..

فهرس